



سلسلة الثقافة القومية (٣٠)

إسرائيل وهويتها الممزقة

كتور عبدالله عبدالدائم

إسـرائيل وهويتها الممزقة



مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة الثقافة القومية (٣٠)

إسرائيل وهويتها الممزقة

الدكتور عبد الله عبد الدائم

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

عبد الدائم، عبد الله
اسرائيل وهويتها الممزقة/ عبد الله عبد الدائم.
١٤٠ ص. ـ (سلسلة الثقافة القومية؛ ٣٠)
١. اليهودية. ٢. الصهيونية. ٣. اسرائيل ـ الأحزاب. ٤. اسرائيل ـ السياسة الحكومية. أ. العنوان. ب. السلسلة.
320.95694

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون ص.ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون: ٨٦٩١٦٤ ـ ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧
برقياً: «مرعربي» ـ فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)

الطبعة الأولى

بيروت، أيار/ مايو ١٩٩٦

المحتويات

مدخل

يتريث العرب، في مألوف العادة، عند التفوق العسكري الاسرائيلي، سواء كان ذاتياً أو مجلوباً، بالإضافة إلى التفوق العلمي والتقاني. وقلما يتساءلون عن مدى تماسك العقيدة أو الايديولوجيا الصهيونية التي يفترض أنها وراء هذا التفوق العسكري والتقاني، وعن مدى قدرتها، بعد أن تصدعت وتفرقت شيعاً وطرائق متنافرة منذ ولادتها حتى اليوم، على حماية كيانها من الانهيار المعنوي من جوفها وأعماقها.

وكثيراً ما يحسبون أن الصهيونية عقيدة جامعة مانعة، واضحة المعالم، بيّنة الأركان، تلتف حولها الكثرة الكاثرة من أبناء اسرائيل ومن يهود العالم، وأن اليهود كانوا دوماً في التاريخ القديم والحديث أمة واحدة، وإن تفرقت بهم الديار، يجتمعون دوماً، بفضل الإرث الثقافي الديني بوجه خاص، على كلمة سواء بينهم، مهما اختلفت مشاربهم ومنازلهم، ولا يفترقون طرائق وشيعاً إلا ليأتلفوا من جديد، ولا يتنابذون إلا ليركنوا إلى الوئام.

في مقابل هذا، كثيراً ما ينسى الكثير من العرب ومن

سائر الأمم أن العقيدة الصهيونية كانت وما تزال تشكو من تناقضات كبيرة في صلبها، وأن العقيدة الدينية لدى اليهود كانت وما تزال حائرة وقُلَّباً وضالّة، تلعب بها الأهواء، وتلعب هي بالأهواء، وأن الجمع بين الصهيونية والدين أمر أعقد من ذنب الضبّ، وهمٌّ أقضّ مضجع اليهود وما يزال، وفرّقهم شيعاً وعصائب، قبل ولادة الصهيونية وبعدها، وقبل ولادة دولة اسرائيل وبعدها، وأنه قمين بأن يزعزع أركان دولة اسرائيل في أي حين.

ولا نغلو إذا قلنا إن السؤال الذي شاع وذاع دوماً نعني: **من هو اليهودي؟ وما هي هوية دولة إسرائيل؟** سؤال أزلي أبدي، أجاب عنه اليهود دوماً بطمسه، وأجابت عنه اسرائيل بالهروب منه أو تزييف النقاش حوله، وتلقى من الأجوبة المتكاثرة والمتناقضة ما يندّ عن الحصر. وما يزال هذا السؤال بلا جواب حقٍ حتى اليوم، لأن الجواب الحق قمين بأن يضع موضع التساؤل الصهيونيةَ وتعددَ منطلقاتها وتناقض أصولها، فضلاً عما صاحبها من تزييف ومراوغة وكذب على الواقع، وأن يفضح بالتالي التهافت المعنوي للوجود الاسرائيلي، وهو تهافت كفيل بأن يقضي على ذلك الوجود في وقت عاجل أو آجل.

والأطروحة التي نود أن نخلص إليها في هذه الكلمة هي أن دولة إسرائيل ملتقى لصراعات قديمة وحديثة، من كل نوع، تمزّق وجودها وتجعلها دوماً كياناً قابلاً للتفجر من داخله، وأن هذه الصراعات ليست عارضة أو طارئة، بل هي

كما يقول الفلاسفة «محايثةٌ» لليهودية والصهيونية ودولة إسرائيل، تقيم في صلبها جميعها. إنها صراعات باطنية (intrinsèque) وخِلْقية (إن أردنا أن نستخدم تعبيراً طبياً) لا يجدي فيها العلاج، ولا شفاء منها إلا بالعدول عن منطلقات الصهيونية ومنطلقات النزعات الدينية المزيفة، ومنطلقات الادعاءات الإثنية والعرقية والقومية المصطنعة.

وبتعبير آخر، ما نود أن نقوله هو أن حل المسألة اليهودية لا يكون إلا بالنكوص عن محاولة اعتبار اليهودية نمطاً فريداً هو نسيجُ وحده بين ديانات العالم، والانخراطِ بالتالي في مسيرة التطور الانساني الذي يرفض أن تكون الديانات أساس حياة الشعوب وكياناتهم، ناهيكم عن أن تدّعي ديانة معينة (ومن ورائها شعب معين) الحق في أن تحكم سواها وفي أن تتحكم في العالم. وبتعبير آخر، إن تخلص اسرائيل واليهودية من آفاتها المقيمة وتناقضاتها المميتة، وتخليص الانسانية بالتالي من شرور تلك الآفات والتناقضات، ومما تثيره في العالم كله من فتن واحتراب، يشترطان أولاً، وقبل كل شيء، التخلي عن الشعارات اليهودية الشوفينية والعرقية التي تجعل من الشعب اليهودي شعب الله المختار الذي ينبغي أن تدين له الشعوب، وأن يصاغ العالم لمرضاته وخدمته وعلى غراره.

ولا شك في أننا لا نستطيع أن نتوقع من إسرائيل ومن معظم يهود العالم أن يضطلعوا بهذه المهمة، مهمة التخلي عن ادعاءاتهم وغرورهم وتسخير العالم لهم. ومن هنا كان من واجب المفكرين في العالم، وعلى رأسهم الصادقون من اليهود،

وهم قلة، أن يكشفوا عن التناقض والزيف الكامنين في صلب الكيان الاسرائيلي، وفي صلب الاتجاهات الدينية والصهيونية التي أدت إلى خلق هذا الكيان، بعون من الدول الكبرى، وأن يقدموا للعالم كله الحقيقة عارية، في منأى عن أكاذيب اسرائيل ومن وراءها. أَوَلَم يكتب لوثر نفسه منذ القرن السادس عشر، قبل ثلاث سنوات من وفاته، كتاباً بكامله عنوانه **اليهود وأكاذيبهم** على الرغم من أنه كان في مطلع حياته من المدافعين عن اليهود؟ أَوَلَم يتساءل تساؤلاً انكارياً وزير المعارف ووزير الثقافة الاسرائيلي أمنون روبنشتاين في كتاب له شهير صدر حديثاً وترجم إلى العربية تحت عنوان **مراجعة الحلم الصهيوني**: هل يعتبر وضع اسرائيل بين الأمم مقرراً بأمر إلهي، يجعلها متميزة من سائر أمم الأرض؟[1].

ولا شك في أن من العسير، في مثل هذا المقام، أن نتحدث، ولو بإيجاز شديد، عن التناقضات الأصيلة، التليدة والطريفة، التي رافقت الحركة الدينية اليهودية منذ ولادتها، ومنذ بدايات القرن الثامن عشر بوجه خاص، والتي رافقت الصهيونية منذ مخاضها حوالى عام ١٨٥٠، ولا سيما بعد ظهور كتاب **دولة اليهود** عام ١٨٩٦ بقلم هرتزل، والتي اشتدت وازدادت تناقضاً وشقاقاً بعد ظهور الدعوة الصهيونية، وقبل ولادة دولة إسرائيل، والتي حمي وطيسها خلال العقود الثلاثة التي سبقت قيام اسرائيل، وصبت كلها أخيراً في الكيان الصهيوني المصطنع الذي لم يستطع حتى اليوم أن يمتص تلك التناقضات، بل ازدادت فيه حدة واشتد أوارها بعد قيام دولة

اسرائيل عام ١٩٤٨، وبعد حرب حزيران عام ١٩٦٧ بوجه خاص، وبعد حرب تشرين الأول عام ١٩٧٣، وما تزال نارها مشتعلة قبل مفاوضات السلام وبعدها، الأمر الذي يدل على أنها تناقضات صميمية أزلية لا تزول إلا بزوال مسبباتها.

من هنا كان علينا أن نكتفي بإشارات سريعة إلى جذور تلك التناقضات ومعالمها البارزة، مصطنعين لغة أشبه ما تكون بلغة البرقيات.

وفي وسعنا منذ البداية، أن نلملم أطراف الموضوع بالإشارة الخاطفة إلى أبرز عناوين التناقضات الذاتية اللدّنية التي حملتها المسألة اليهودية عبر تاريخها الطويل، وعبر المراحل الأساسية التي أشرنا إليها منذ حين، والتي ما تزال حالّة في صلب كيانها الذي ولد ولادة قيصرية حاملاً معه حصاد تناقضات المذاهب اليهودية عبر القرون. وتتلخص هذه التناقضات في رأينا في العناوين الكبرى الآتية:

- **التناقضات في صلب الديانة اليهودية عبر التاريخ.**
- **التناقضات في صلب الدعوة الصهيونية.**
- **التناقضات بعد ولادة دولة اسرائيل وحتى اليوم.**

ولا حاجة إلى القول إن هذا التقسيم الثلاثي للتناقضات يهدف إلى تبسيط دراسة المشكلة. فبين التناقضات التي أتينا على ذكرها تداخل كبير وأخذ وعطاء متبادل، وجميعها تأتلف وتلتقي في خاتمة المطاف لتكون القنبلة الموقوتة التي قد تؤدي إلى انفجار الكيان الاسرائيلي.

الفصل الأول

التناقضات في صلب الديانة اليهودية عبر التاريخ

أولاً: اليهودية التقليدية

لن نغوص في الأعماق البعيدة للديانة اليهودية، منذ قيامها وحتى تباشير ولادة الدعوة الصهيونية. وحسبنا أن نقول موجزين، إن اليهودية التقليدية ظلت سائدة في العهود القديمة وخلال العصور الوسطى حتى بداية عهد «التنوير» في القرن الثامن عشر. وقد ميّزت هذه اليهودية التقليدية جملة من السمات أهمها:

١ ـ **مراعاة قواعد الشريعة اليهودية**، تلك القواعد المستمدة من التوراة المكتوبة، والمستمدة أيضاً، وبوجه خاص، من التوراة الشفوية (التي يزعم اليهود أنها أوحيت على جبل سيناء في الوقت نفسه الذي أوحيت فيه التوراة المكتوبة). وتضم هذه التوراة الشفوية ما يسمى بالعبرية «ميشنا» (Michna) (ومعناها «التكرار والتعليم»)، وهي تضم بدورها

القانون الديني الشفوي أو ما يعرف بـ «الهالاخاه» (Halakha). وقد وضعت على الميشنا حواش وشروح سميت باسم «غيمارا» (Guemara) (وهو يعني بالعبرية «الشرح»). ويؤلف الميشنا والغيمارا مجتمعين «التلمود» (الذي يعني بالعبرية «البحث والتعليم»).

ولا يتسع المجال للحديث عن التناقضات الكبيرة القائمة في قلب قواعد الشريعة اليهودية كما وردت في التوراة وفي التلمود، وعن اختلاف ربانيي اليهود حولها منذ القدم.

٢ ـ خلافاً للأوهام الشائعة، **لم تكن الديانة اليهودية دوماً ديانة توحيدية**. ففي معظم أسفار العهد القديم ثمة إشارة إلى «آلهة أخرى» معترف بها، وإن يكن يهوه هو أقواها[٢]، ولا سيما أن «يهوه» هذا إله غيور جداً من منافسيه ويمنع شعبه من عبادتهم. ولم يُنكَر وجود آلهة أخرى غير «يهوه» إلا في الكتب المتأخرة جداً.

٣ ـ **لم تكن الديانة اليهودية ديانة تستند إلى العهد القديم**، خلافاً لما شاع بين المسيحيين بوجه خاص، وبين المتأثرين بالثقافة المسيحية بوجه عام. كما أن العهد القديم لا يحتل في اليهودية المكانة التي له عند البروتستانت، وحتى عند الكاثوليك[٣]. والأمر كله يرتبط بالتأويل، ذلك التأويل الذي يستند إلى التلمود لا إلى التوراة نفسها. وهذا التأويل يعود أصله إلى الفريسيين، وأدخل بعد ذلك في التلمود. وهو تأويل يناقض في كثير مما يقرر النصوص الواردة في العهد القديم

(كمبدأ العين بالعين والسن بالسن الذي ورد في سفر الخروج، والذي تم تفسيره بعين مالٍ مقابل العين، أي بدفع غرامة عوضاً من العقاب الجسدي. وكجملة «لا تسلق الجدي بحليب أمه» التي وردت في سفر الخروج أيضاً، والتي أولت تأويلاً يحظر خلط أي نوع من اللحوم مع أي نوع من الحليب، وغير ذلك كثير)[٤].

وآية هذا كله أنه «عندما يقرأ التوراة اليهود الأرثوذكس اليوم (واليهود جميعهم قبل عام ١٧٨٠)، فهم يقرأون كتاباً مختلفاً وذا معان مختلفة تماماً عن التوراة كما يقرأها غير اليهود أو اليهود المتشددون»[٥].

٤ ـ النظام الشرعي في التلمود نظام شامل وكلي وسلطوي وجامد. فشتى جوانب الحياة اليهودية الفردية والجماعية مشمولة ومفصلة بإسهاب، وثمة ضروب من الجزاء والعقاب لكل خطيئة أو مخالفة لأحكام الشرع يمكن تصورها. ومن الأمثلة على ذلك:

ـ عدم القيام بأي عمل يوم السبت. ولهذا الحكم، كما لسواه، تفصيلات جزئية مدهشة: فمفهوم العمل محدد، وهو يشمل ٣٩ نوعاً من الأعمال على وجه التحديد. وأحد الأعمال الممنوعة «الكتابة»، وهذه الكتابة الممنوعة هي التي تتجاوز حرفين. ومن الأعمال المحظورة «طحن القمح» و«الحصاد».

- السماح للكاهن الأعلى بأن يتزوج عذراء. ويكرس التلمود بحثاً مضطرباً مشوشاً لتحديد المعنى الدقيق للعذراء المناسبة للزواج من الكاهن الأعلى، ولبيان حكم المرأة التي فضت بكارتها نتيجة لحادث، بتأثير أداة معدنية أو خشبية أو غير ذلك.

ويطول الحديث إن أردنا ضرب الأمثلة على التناقضات التي داخلت صلب الديانة اليهودية على نحو ما فهمها وقررها ربيو اليهود منذ القدم، والتي استمر الجدل حولها في العصور الحديثة، كما سنرى. وما نود أن ننتهي إليه ههنا أن الديانة اليهودية خضعت لتحويرات وتفسيرات متناقضة منذ القدم، وأن هذا التناقض ظل يعشش ويفرخ في حياة اليهود عبر العصور، ووجد طريقه سرباً إلى الصهيونية وإلى دولة إسرائيل. ومن أبرز التناقضات تلك المتصلة بالإعفاءات الشرعية، ذلك أن التلمود نظام دغمائي متشدد - بخلاف التوراة - والمعنى الحرفي للنص فيه ملزم. غير أن أحبار اليهود ابتكروا نظاماً مخادعاً يتمسك بحرفية الحكم الشرعي ويخالف روحه ومقاصده إرضاء للطبقات اليهودية الحاكمة. وقد عرف هذا النظام المرائي باسم نظام «الإعفاءات الشرعية» (هيتيريم Heterim)، وكان من أهم عوامل انحطاط اليهودية في حقبتها الكلاسيكية. وتتناول تلك الاعفاءات معظم الأحكام الشرعية، كتقاضي الربا، والسنة السبتية، والحلب يوم السبت، والمحاصيل المختلفة، والمواد المخمرة، واستخدام الغرباء يوم السبت، وسوى ذلك كثير.

٥ ـ ولعل ما يستحق عندنا وقفة خاصة، في إطار حديثنا هذا عن استمرار التناقضات التي حملتها اليهودية منذ ولادتها، عبر العصور، هو النزعة الصوفية التي ذرّ قرنها بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر الميلاديين في كثير من بلدان أوروبا، ونعني بها نزعة «القبّالة» (Kabbale). وعلى الرغم من أن كلمة «قبّالة» تعني في العبرية مجرد العودة إلى الإرث اليهودي التقليدي، فإنها ما لبثت حتى غدت مرادفة لمعنى «المذهب السري» الذي اعتبره أصحابه ممثلاً للمحتوى الحقيقي للتوراة. وقد بين أبرز أقطاب هذه النزعة، وهو غيرشوم شوليم (Gershom Scholem)، أن القبالة ضرب من الغنوصية اليهودية، تحاول الكشف عن أسرار الألوهية، بل معرفة تلك الأسرار.

ولن نتريث عند أصول هذه النزعة القبالية التي تعود إلى تباشير ولادة النزعة الصوفية اليهودية وقرزماتها الأولى منذ القرن الأول الميلادي. وما يعنينا هو أن النزعة القبالية الحقة ظهرت، كما قلنا، بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر الميلاديين في جنوبي فرنسا وفي إسبانيا، وأننا نجد أفكارها وتعاليمها في كتاب كان له أثر كبير في ذلك الحين هو كتاب باهر *(Bahir)* (أي كتاب الضياء)، ثم في كتاب آخر أعظم شأناً، يكاد يعتبر توراة المتصوفين اليهود، ونعني به كتاب زهار *(Zohar)* (أو كتاب الروائع)، الذي وضع بين عام ١٢٤٠م وعام ١٢٨٠م. وهو كتاب يميّز بين المظهر الباطني الخفي للألوهية (آن ـ صوف En-Sof) وبين المظهر الظاهري الموحى به، ويعرض على هذا النحو صفات الإله وقدراته

العشر، بالإضافة إلى نظرية تقول بهجرة الأرواح.

بلغت «القبّالة» أوجهاً بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر، ودخلتها ملامح «مسيحانية» بعد طرد اليهود من إسبانيا عام ١٤٩٢، وبزغت فيها تأملات تتصل بنهاية الخليقة. وقد ذابت هذه النزعة الصوفية القبّالية في أوروبا الوسطى والشرقية، وانحلت أخيراً داخل النزعة «الحسيدية» الاشكنازية التي نمت معها جنباً إلى جنب، والتي صحبها انتشار أفكار شعبية خرافية متطيّرة (تتصل بالشياطين، وسحر الحروف، وسوى ذلك).

ويعنينا من هذا العرض الخاطف للقبالة أن نقدم شاهداً واضحاً من بين شواهد كثيرة على ما عرفته الديانة اليهودية من شتات المذاهب ومن غرائب المعتقدات، وما يشير بالتالي إلى التناقضات المتكاثرة التي رافقت نشأتها وتطورها، بل يعنينا فوق هذا أن نشير إلى أن القبالة أنشأت لها منذ ذلك الحين مركزاً جديداً في فلسطين، في الأرض التي سوف يظهر فيها المسيح في زعمها. وفي ذلك المركز وضع اسحق لوريا (Isaac Luria) (١٥٣٤ ـ ١٥٧٢)، ذلك الشخص الأسطوري الذي كان يسمى «الأسد المقدس»، طريقة جديدة للتأمل عن طريق التركيز على حروف التوراة، من أجل الاتحاد مع الذات الإلهية. وقد ادعى الانتساب في ما بعد إلى «القبّالة» على نحو ما صاغها اسحق لوريا يهوديٌ كان يعيش في فلسطين اسمه ساباتاي ايزيفي (Sabbatai Izevi) (١٦٢٦ ـ ١٦٧٦) وأعلن

نفسه «مسيحاً» بفضل النبي ناتان (Nathan) الذي ادعى النبوة في غزة، والذي اعتبر العام ١٦٦٦ عام الخلاص والافتداء، وعام النعم المسيحانية الفائضة، وذلك بموافقة معظم الحاخامات من فلسطين إلى المغرب إلى بولونيا. وبعد أن ذهب المسيح (نعني ايزيفي) إلى القسطنطينية ليقتنص عرش السلطان العثماني، تمّ توقيفه في الأراضي التركية وألقي به في السجن، وخيّر بين الموت وبين الإسلام (في ما يزعم مؤرخو اليهود) فاختار الإسلام، في تلك السنة التي كان يدّعي أنها ستكون سنة الافتداء والخلاص، نعني عام ١٦٦٦. ونفاه السلطان إلى ألبانيا حيث توفي بعد عشر سنوات.

ونحن إذ نذكر هذا كله، نود أن نبين كيف أن التفسيرات المتناقضة توالدت عبر التاريخ اليهودي، وكيف كانت المنازع المختلفة تظهر حيناً وتختفي حيناً آخر مصطرعة مع سواها من المنازع. وما نذكر جانب من شواهد لا حصر لها تشهد على أن الديانة اليهودية منذ نشأتها وعبر مسيرتها، كانت دوماً مسرحاً للتناقض والتزييف والاجتهادات المختلفة، ولم يقع يوماً أي اتفاق حول أصول ثابتة لها، ولا يتوافر اليوم أي عرض أو تفسير لها يمكن أن يكون موضوع إجماع أو اتفاق.

ثانياً: اليهودية بعد عصر «التنوير» وحتى بزوغ الصهيونية

هذه اليهودية التقليدية التي أشرنا إلى بعض معالمها

وتناقضاتها العريقة، ظلت سائدة حتى نهاية العصر الوسيط، وأخذت في التغير بوجه خاص، وسط صراعات وشقاقات دينية عارمة، عند تباشير عصر التنوير، وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بوجه خاص. فلقد تعرض اليهود على نحو حاد وسريع، لما أتى به العصر الحديث من ثورة علمية وتقانية في القرن السابع عشر، ومن ثورة اجتماعية وسياسية في القرن الثامن عشر، ومن ثورة صناعية في القرن التاسع عشر. وطفق اليهود يخرجون من غيتهم (Ghetto) (عزلتهم) وسباتهم المادي والفكري كذلك. وظهر في ألمانيا بوجه خاص جدل ونقاش حول «الاصلاح الديني اليهودي»، أهم معالمه:

- إخراج اليهود من عزلتهم وتقوقعهم حول ذاتهم إلى الاندماج القانوني والاجتماعي والسياسي مع «الدولة القومية الحديثة» التي بدأت تبزغ في ألمانيا وفي أوروبا كلها.

- إبدال الإعداد التقليدي - المستند إلى تعاليم الحاخامات والتلمود - بإعداد حديث وتربية حديثة.

- إباحة الصلاة بغير العبرية، أو باللغات الوطنية للبلدان التي يقيم فيها اليهود، والتخلي عن القبعة الإلزامية وعن الفصل بين الجنسين في الجوقة الدينية.

وقد عرف **الإصلاح الديني اليهودي** تطوراً واضحاً في ألمانيا كما ذكرنا، وعرف تطوراً أكبر منه في الولايات المتحدة الأمريكية. فقد لقيت حركة الاصلاح هذه هناك دعماً قوياً منذ

منتصف القرن التاسع عشر من قبل طائفة مشاهير الحاخامات الكبار الذين هاجروا من ألمانيا إلى الولايات المتحدة. وقد أنشأ هؤلاء الحاخامات في البداية «جمعيات إصلاحية» ومعابد، وأصدروا بعد ذلك عام ١٨٥٧ كتاب صلوات باللغة الألمانية والعبرية، أدخلوا فيه تجديدات جذرية، ولم يتركوا فيه أية إشارة إلى أرض الميعاد أو إلى إعادة بناء الدولة اليهودية. وقد تُوِّجت هذه الحركة الاصلاحية ببرنامج تم التصويت عليه في بيتسبرغ عام ١٨٨٥ ، وتبنته بعد سنوات الحركة الربّية الاصلاحية، واعتبرته الموقف النهائي لليهودية الجديدة. ومن أهم ما ورد في هذا البرنامج التخلي النهائي عن أي طموح قومي لليهودية، ورفض التفكير في العودة إلى فلسطين أو إحياء أي قانون ديني مزعوم يدّعي إقامة دولة يهودية. ومما جاء في هذا البرنامج أيضاً الدعوة إلى اندماج اليهود بالبيئة القومية والثقافية للمجتمعات التي يعيشون فيها.

غير أن هذه **اليهودية العقلانية** ما لبثت حتى لقيت مقاومة عنيفة من كثير من الحركات الدينية الأخرى. واضطرت إلى أن تخوض معها صراعات دينية حادة. وما هو أدهى وأمرّ أنها دخلت في صراعات مع نفسها وخضعت لتناقضات في داخلها. ونمرّ في ما يلي مروراً خاطفاً بأبرز المذاهب الدينية التي قاومت هذا الاتجاه الاصلاحي العقلاني:

١ ـ أول هذه المذاهب ما عرف باسم **«اليهودية الأرثوذكسية»** (أو اليهودية القويمة أو المستقيمة، إن صحت

الترجمة). لقد أخذ عدد كبير من اليهود ينظر بقلق إلى الاتجاهات الاندماجية والتحررية التي ظهرت في القرن التاسع عشر، على يد حركة الاصلاح الديني كما رأينا. وكانوا يخشون أن تؤدي هذه الدعوة التحررية إلى الزواج المختلط وإلى الردة الدينية، وأن يكون ذلك بداية الطريق نحو قضاء اليهودية على ذاتها. وقد تجلّت ردود الفعل هذه على الحركة الاصلاحية لدى الأرثوذكسية اليهودية في ألمانيا كذلك، وفي الولايات المتحدة بوجه خاص، حيث شعرت الأرثوذكسية بالحاجة إلى أن تلم صفوفها. وهكذا أنشأ الحاخام اسحق إيخانان (Echanan) عام ١٨٩٦، أول مدرسة عليا للتربية الدينية التقليدية، وهي التي ولدت عام ١٩٢٨ «كلية ييشيفا» (Yeshiva) (التي كانت أول معهد عال يشرف عليه اليهود، و«جامعة ييشيفا» عام ١٩٤٦. وتعني كلمة «ييشيفا» في العبرية «المدرسة الدينية».

ومن أبرز أسباب اشتداد أزر الأرثوذكسية اليهودية في أمريكا السبب السكاني، فضلاً عما حملته اليهودية وتحمله دوماً في صلبها من بذور الشقاق والتناقض. فحوالى عام ١٨٢٠ كان عدد المهاجرين الذين عادوا من أوروبا الشرقية إلى الولايات المتحدة لا يتجاوز ثمانية آلاف مهاجر. ولكن الاضطهاد الكبير الشهير الذي لقيه اليهود بين عام ١٨٨١ وعام ١٨٨٢ في روسيا وبولونيا أدى إلى هجرة جماعية ضخمة، بحيث أصبح عدد اليهود الأمريكيين عام ١٩٠٨ حوالى ١,٨ مليون يهودي، ثلاثة أرباعهم من أصول أوروبية شرقية. وكان

معظم هؤلاء من العمال، وكانوا يمارسون ديانة مختلفة ترجع إلى القرون الوسطى. وهكذا حدث في الوعي اليهودي على نطاق واسع لم يسبق له مثيل **نَفيٌ للحداثة وللمعاصرة**، وتباينٌ في هذا الوعي بتباين الأصول العرقية المختلفة التي يرجع إليها اليهود المهاجرون. وكانت لذلك نتائج خطيرة على المدى البعيد حتى يومنا هذا. وظهر صراع حاد بين أولئك الذين يريدون أن يلحقوا بالحضارة الحديثة وبالثقافة في معزل عن الدين، وبين أولئك الذين كانوا ما يزالون يستمسكون بالتقاليد الدينية اليهودية البالية التي ترجع إلى العصر الوسيط وما قبله. ونشأت من ذلك **«أزمة هوية»** حادة وواسعة.

٢ ـ إلى جانب النزعة الدينية الأثوذكسية، قاومت حركة الاصلاح نزعة ثانية، هي **النزعة اليهودية العلمانية**. وقد ظهرت في البداية في ألمانيا أيضاً، لأسباب مختلفة تماماً عن أسباب ظهور النزعة الأرثوذكسية. فقد تزايد أعداد اليهود الشبان ـ من جيل هايني (Heine) (١٧٩٧ ـ ١٨٥١) وكارل ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) ـ الذين أخذوا يهجرون دينهم اليهودي ويتجهون نحو مبادئ عصر التنوير الحديث ـ على نحو فاق حتى ما حدث لدى معاصريهم من المسيحيين. وبتأثير الأفكار الممهدة للإصلاح الديني (على يد أناس مثل ميترنيخ (Metternich)، تزايد كره المثقفين اليهود للدين أياً كان. وقد عرفت أوروبا الشرقية أيضاً مثل هؤلاء الثوار اليهود من اشتراكيين وفوضويين وسواهم.

وكان من نتيجة هذا كله أن الكثير من اليهود ظلوا يمارسون الطقوس الدينية من دون أن يؤمنوا بها. وهكذا أدت دعوة الإصلاح الديني اليهودي التي نادت باندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها إلى ظهور اتجاه ديني معاد تماماً للدين. وكان الوجه الآخر للعملة أن عدداً كبيراً من الشبان اليهود المثقفين اتجه نحو حركات الخلاص الجديدة الجذرية، التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر، على اختلاف أنواعها: كالاشتراكية والفوضوية، والصهيونية بشكل خاص التي غدت محط آمال المستقبل.

وقد ولّد هذا كله تساؤلاً كبيراً هو: ماذا تعني اليهودية في مثل هذه الظروف؟ وقد غدا هذا السؤال المشكلة الكبرى في أوروبا، وفي أمريكا. وجوهر هذا السؤال: هل اليهودية دين، أم هي عرق، أم هي كلاهما؟ إن اليهودية تحاول دوماً أن تنتسب إلى شعب معين له هوية مشتركة، وإرث ثقافي مشترك، ومستقبل مشترك ودين مشترك بوجه خاص. غير أن من حقنا أن نتساءل: كيف يمكن في مثل هذه الحال أن يكون المرء يهودياً وإنساناً يعيش مع أبناء عصره في آن واحد؟ بل أين الدين المشترك والثقافة المشتركة بعد كل ما ذكرنا وما لم نذكر من اصطراع المذاهب الدينية اليهودية واتجاهاتها المتباعدة؟

٣ ـ إلى جانب الحل الأرثوذكسي والحل العلماني، بل بينهما، بدأت تظهر في الأفق قوة ثالثة مقاومة للإصلاح الديني، ونعني بها **النزعة اليهودية المحافظة**. فبين عامي ١٨٨٦

و١٨٨٧، ظهر عدد من الحاخامات المعادين لبرنامج بيريفيا مـانـدس (H. Perevia Mendes) الـذي أنـشـأ «رابـطـة المنتـدى اللاهوتي اليهودي». على أن هذه النزعة الدينية المحافظة لم يشتد ساعدها إلا عندما قدّم لها عدد من اليهود الأمريكيين ذوي النفوذ وذوي الأصل الألماني دعماً مالياً وعلمياً كبيراً. وبفضل ذلك تم عام ١٩٠٢ استقدام العالم سليمان شيشتر (Schechter) (الذي اكتشف مخطوطات الغنيزا (Geniza) في القاهرة). وقد رسم هذا العالم طريقاً جديدة تتيح في زعمه قبول المكتسبات الحديثة مع الإبقاء على الإخلاص للتوراة الموسوية وللتقاليد الحاخامية. ومع ذلك نأى معظم أبناء المهاجرين اليهود في الولايات المتحدة (الذين بلغ عددهم عام ١٩٢٧ زهاء ٤,٢ مليون نسمة، أي ٣,٦ بالمئة من مجموع السكان) عن العقيدة الدينية اليهودية وأشاحوا بوجههم عنها، وتزايدت أعداد الملحدين والغنوصيين والمشككين في أوساط الطلاب اليهود، وأصبح العديد من اليهود يضع في مقابل اليهودية (Judaism) (بـمعـنـى الإيـمـان بـالـعـقـيـدة) الـتـهـود (Jewishness) (بـمـعـنـى الانتساب إلى الشعب اليهودي)، وظهرت نزعة قومية أشاعها الاشتراكيون.

وواضح من هذا كله أن الوضع الداخلي في قلب اليهودية قد تأزم إلى حد كبير وأصبح خطيراً عند تخوم القرن العشرين، وأصبح التناقض واضحاً وفاضحاً بين الاتجاهات الدينية المختلفة، وغدت الأسئلة التي تطرحها على نفسها وفي

ما بينها هذه المذاهب والفرق والاتجاهات الدينية اليهودية المختلفة أدهى وأخطر من الأسئلة التي يطرحها غير اليهود على هذه التيارات اليهودية، بل قد لا نجاوز القصد إن قلنا إن الصراع بين حياة اليهودي الخاصة ومستلزمات الحياة العامة العصرية ولّد ضرباً من «الفصام» النفسي بين ادعاء الحياة العصرية من جهة، وضغوط الحياة اليهودية من جهة أخرى. ولقد غدا السؤال الذي لا يستطيع اليهودي اجتنابه: هل من واجبه أن يستمسك بالقانون الموسوي في جميع تفصيلاته أم لا؟ بل ما هي حقيقة هذا القانون أصلاً؟ وهل الديانة اليهودية ديانة تختلف عن سواها من الديانات، وهل أنّ الشعب اليهودي شعب مختلف وعرق مختلف في عصر لا يعترف بالأعراق؟

وسوف نرى أن هذا السؤال بعناصره المختلفة ما يزال مطروحاً حتى اليوم في اسرائيل نفسها، وأنه يشغل المواطن الاسرائيلي في حياته اليومية أكثر من أية قضية أخرى مهما يكن شأوها.

الفصل الثاني

التناقضات في صلب الدعوة الصهيونية

في صلب الدعوة الصهيونية ومخاضها وولادتها تناقضات فكرية كبيرة فضلاً عن الغموض والإبهام، مقصوداً كان أو غير مقصود. فهنالك التناقض - لدى ولادة الصهيونية - بين الصهيونية الثقافية والصهيونية السياسية. وهنالك التناقض بين الصهاينة المنادين بالعودة إلى أرض اسرائيل المزعومة والصهاينة المخالفين لذلك. وهنالك التناقض بين الصهيونية القومية والصهيونية الاشتراكية. وهنالك التناقض بين الداعين إلى إحياء اللغة العبرية واتخاذها لغة قومية لليهود، والمعادين لتلك الدعوة. وهنالك دوماً وأبداً التناقض بين الدعوة الصهيونية التي تدّعي أنها علمانية عصرية والديانة اليهودية، ولا سيما في اتجاهاتها التقليدية والأرثوذكسية المتطرفة، إلى جانب التناقض بين أصحاب النزعة الصهيونية المتدينة والاتجاهات الدينية الأخرى المناهضة للصهيونية. وهنالك التناقض بين الصهيونية الهرتزلية وفروعها من جهة، واليمين القومي الصهيوني الفاشي

من جهة أخرى. وهنالك وهنالك...

أولاً: التناقض بين الصهيونية الثقافية والصهيونية السياسية

لفظ «صهيونية»، كما نعلم، لفظ ابتدعه عام ١٨٩٠ كاتب نمساوي هو ناتان بيرنباوم (Nathan Birnbaum) للدلالة على اليقظة القومية اليهودية في فلسطين. وقد كانت تشير إذ ذاك إلى أحد وجهي الدعوة القومية اليهودية التي لبست مظهرين في العقد الأخير من القرن التاسع عشر (١٨٩٠ ـ ١٩٠٠). فقد كانت هناك **الدعوة القومية** التي نادى بها الشتات اليهودي، ولا سيما في شرقي أوروبا، والتي كانت تعتزم النضال من أجل إقامة دولة روسية ديمقراطية واتحادية تمنح اليهود استقلالاً ذاتياً قومياً ـ ثقافياً مرتبطاً بشخصهم لا بأرض معينة. وإلى جانب هذه الدعوة القومية الثقافية كانت هنالك، بدءاً من عام ١٩٠٥، دعوة مؤيدة لتجمع اليهود تجمعاً جغرافياً (ليس بالضرورة في فلسطين) من أجل أن يضمنوا كامل استقلالهم الثقافي والاقتصادي. وقد ولدت هذه الدعوة في قلب حزب العمل الصهيوني ـ الاشتراكي الذي كان يتزعمه ناحمان سيركين (Nahman Syrkin).

هذه الدعوات القومية لم تكن ذات طابع سياسي إلا بمقدار تصورها شكل تمثيل اليهود (عن طريق جمعية وطنية عامة لليهود مثلاً). وكان الطابع السياسي لها على أية حال

محجوباً بالتأكيد على البعد الثقافي والاجتماعي للقومية اليهودية. ولم يتم القضاء على هذا الغموض في النظرة إلى الجانب السياسي في الحركة الصهيونية إلا من خلال الصهيونية التي نادى بها رجل القانون والصحافي النمساوي تيودور هرتزل (Theodor Herzl) (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤) حين أطلق عام ١٨٩٦ ـ ١٨٩٧ حركة قومية تهدف إلى بناء دولة قومية، يتحقق فيها وجود الأمة كاملاً من خلال دولة مستقلة.

على أن هذا التسييس للقومية اليهودية واجه مقاومة في صفوف الصهاينة أنفسهم. هكذا نجد أن المنادي الصادح بالصهيونية الثقافية، نعني آحاد هاعام (Ahad Ha-Am) الذي كان يدرك بوضوح وجزم أن فلسطين لا يمكن أن تصبح ملجأ لغالبية الشعب اليهودي، كان يأمل أن تكون فلسطين هذه مجرد مركز روحاني يبث ليهود الشتات ثقافة عبرية حقة تغذي حياتهم الفكرية. وقد تأثر بهذه الصهيونية، التي يغلب عليها الطابع النوعي الكيفي على الطابع الكمي، عدد من المفكرين في الجامعة العبرية في القدس (من أمثال مارتن بوبر (Martin Buber) ويهوذا ماغنس (Judah Magnes) وسواهما) وحاولوا بالتالي أن يعدّلوا الطابع السياسي للصهيونية عن طريق الاهتمام بالبعد الأخلاقي، الأمر الذي قادهم إلى إعلان تأييدهم قيام دولة مزدوجة القومية، أي يهودية ـ عربية.

وههنا نجد أحد أوجه التناقض الذي تعرضت له الصهيونية منذ ولادتها. وهو تناقض استمر في ما بعد وأخذ أشكالاً مختلفة.

ثانياً: التناقض داخل الصهيونية حول أرض الدولة اليهودية

والتناقض الآخر المهم الذي عرفته الصهيونية وهي بعد جنين، هو التناقض المتصل بتحديد الموقع الجغرافي للدولة الصهيونية. فقد جابت الصهيونية بعد نشأتها أطراف المعمورة بحثاً عن مكان يأوي إليه اليهود. هكذا حاول اليهود الصهاينة إقامة وطن قومي في جنوبي ليبيا التي كانت تحت السلطة الايطالية، أو في أوستراليا، أو في أنغولا أو في أوغندا التي وافقت بريطانيا على منحها لليهود عام ١٩٠٣. وذهبت جهودهم في هذا السبيل أدراج الرياح.

١ ـ لقد كان الخلاف بين الصهاينة حول اختيار أرض فلسطين مقراً للدولة اليهودية عميقاً وحاداً. ومن أشهر من رفض إقامة دولة يهودية في فلسطين ليو بنسكر (Leo Pinsker) (١٨٢١ ـ ١٨٩١) الذي كان طبيباً في أوديسا، وقد انعكست في أفكاره شتى ضروب التوتر والتناقض التي اشتعل أوارها خلال تلك الحقبة الحرجة من ولادة الصهيونية: وقد ناضل هذا الطبيب في البداية من أجل نشر الثقافة الحديثة بين اليهود، وبالتالي من أجل اندماجهم ضمن المجتمع الروسي، غير أن المذابح التي وقعت في روسيا ضد اليهود والتي شجعها الامبراطور ألكسندر الثالث، دفعته إلى إصدار بيان عام ١٨٨٢ يدعو فيه إلى إقامة وطن للشعب اليهودي. وقد تحدث في هذا البيان الذي لا يتجاوز ثلاثين صفحة حديثاً شاملاً عن الشعب

اليهودي، بيّن فيه أن اليهود يكونون حقاً في نظره شعباً، أي مجموعة من الأفراد تجمع بينهم بعض السمات الاجتماعية ـ الثقافية. غير أنهم لا يكوّنون أمة. ولكي يكوّنوا أمة يعوزهم المسكن المشترك والأرض المشتركة وإرادة الحياة معاً. ومأساة الشعب اليهودي في نظره أنه لا يكوّن أمة وأنه مجموعة من اليهود. ولذلك نادى بضرورة القيام بجهد إرادي لخلق الوعي بالقومية اليهودية، لأن الأمة اليهودية، كما يقول: «لا توجد في حد ذاتها ومن تلقاء نفسها، وليست معطى أزلياً دائماً، وإنما هي وجود ينبغي أن نبنيه بفعل إرادي من خلال الشعور القومي الذي علينا أن نحييه». والذي يعنينا من هذا كله، أن بنسكر يفصل ميدان السياسة عن ميدان الدين، وهذا ما يفسر رفضه إقامة وطن قومي في فلسطين، ودعوته إلى إقامة هذا الوطن في مكان آخر. ذلك أن هدف جهودنا، كما يقول: «ينبغي ألا يكون الأرض المقدسة بل أرضنا نحن». فالربط بين أرض اسرائيل وبين ماهو مقدس ربط قوي إلى حد يجعل من المستحيل إقامة دولة يهودية في إطار سياسي محض. ويذكر في هذا المجال فرضية جريئة: وهي أن سقوط دولة داود ومَن بعده يرجع إلى الخلط المبهم دوماً بين الوجه السياسي (ممثلاً بالملك والقضاة) وبين الوجه الديني (ممثلاً برجال الدين والأنبياء). وهذا الخلط لا يمكن اجتنابه في حال اختيار أرض فلسطين، لأنه خلط ناجم عن الوضع الفريد الذي تختص به أرض اسرائيل. ولهذا، من الضرورات القاطعة، عند بناء موطن قومي ثابت، اجتناب ذلك الوهم المشؤوم، يعني «إحياء دولة يهوذا القديمة».

ويذهب التيار الديني التقليدي إلى أبعد من هذا في مقاومته الصهيونية بوجه عام، وفي مقاومته الدعوة إلى العودة إلى أرض إسرائيل المزعومة بوجه خاص.

ويورد لتأييد وجهة نظره في هذا المجال حججاً جديدة، فضلاً عن أنها تكشف على نحو واضح التناقضات الفاضحة في صلب ولادة الصهيونية، إذ يرى هذا التيار أن التوراة غدت البديل المتخيل للأرض المقدسة، وضرباً من الأرض المتحركة، لأن أرض الله الجديدة أصبحت بعد الشتات أرضاً لا تحدها حدود، وحيثما وجد اليهودي فثَمَّ أرض الله. والاستمساك الأمين بالمبادئ الدينية اليهودية اقتراب رمزي من أرض اسرائيل. والحضور الجسدي فوق هذه الأرض غدا أمراً ثانوياً، بل غدا محرّماً إذا كان يخفي وراءه نقض العهود التي تمت بين اليهود يوم تفرقوا شتاتاً. وجوهر هذه العهود عدم إقامة أعداد كبيرة من اليهود في أرض اسرائيل، وعدم الرجوع إليها بقوة السلاح على الأقل طالما لم يبدأ بعد العهد المسيحاني، وعدم العصيان والثورة ضد شعوب العالم.

ومن هنا كانت الصهيونية، حتى في ما يتصل بأرض اسرائيل، تمثل خطراً كبيراً في نظر المتدينين المحافظين. وهي، في نظرهم، حين تحصر الوجود اليهودي في إطار حدود سياسية معينة، تضع موضع البحث والشك الهوية اليهودية التي زال ارتباطها بالأرض بحكم إقامتها في المنفى. وتبدو الصهيونية، لهذا التيار الديني الأرثوذكسي، ضرباً من العودة

إلى الخلف لا يجوز القبول بها لأنها تحبس اليهود من جديد في مكان مغلق بعد أن نجحوا في تخليص اليهودية من استبداد المكان.

وفي مقابل هذه النظرة، وعلى النقيض منها، ظهرت دعوة «محبي صهيون» (Hovel Tzion) في الامبراطورية الروسية من أجل تمتين الوجود اليهودي في فلسطين. ولا يتسع المجال للحديث عن أفكار هذه الجماعة وأعمالهم. وحسبنا أن ندرك من خلال كل ما ذكرناه كيف اصطرعت أفكار الصهاينة الأوائل وتباينت تبايناً كبيراً في ما يتصل بتخير الأرض الملائمة لإنشاء وطن قومي ليهود العالم.

٢ ـ إن «هرتزل» نفسه، لم يطالب في كتابه الشهير المعنون **دولة اليهود** *(Der Juden Staat)* الذي نشر عام ١٨٩٦، بإنشاء «دولة يهودية» بل دعا إلى إنشاء «دولة لليهود». ولم تكن الديانة اليهودية هي العنصر الأساسي في دعوته، بل كان الأساس عنده الشعب اليهودي. ولم تكن العودة إلى أرض اسرائيل بالتالي ضرورية في نظره في البداية. فما كان يعنيه هو «مأساة الشعب اليهودي»، وما تستلزمه من تنظيم ذاتي للشعب اليهودي في إطار دولة أنى كانت. وفي «المؤتمر الصهيوني العالمي الأول» الذي عقد في بال في سويسرا عام ١٨٩٧، برئاسة هرتزل نفسه، والذي تبنّى أول برنامج أساسي للحركة الصهيونية، قبل «هرتزل» للمرة الأولى، وتحت ضغط الاتجاهات المناوئة، أن تتم إقامة الوطن اليهودي في فلسطين.

ومن أسباب تحوله هذا قضية «دريفوس» الشهيرة وتزايد العداء لليهود في فيينا. وعند ذلك أطلق شعاره الشهير «شعب بلا بلد» في حاجة إلى «بلد بلا شعب».

ومما يجدر ذكره بصدد هذا التأرجح الذي أصاب هرتزل بشأن تخير فلسطين موطناً لليهود، موقفه من العرض الذي قدمه عام ١٩٠٣ «جوزيف شامبرلين» (J. Chamberlain) وزير المستعمرات البريطاني إذ ذاك في ما يتصل بإقطاع أوغندا أرضاً لليهود. فقد قبل هرتزل ذلك العرض، غير آبه لكون تلك الأرض الافريقية لا تحمل أي معنى تاريخي أو ديني في نظر اليهود. ومن الجدير بالذكر أن بن يهودا (Ben Yehouda) أبا الدعوة إلى إحياء اللغة العبرية، كما سنرى، كان من المؤيدين أيضاً لهذا الاقتراح البريطاني، وكان يرى أن ليس هنالك أي شيء يبرر معارضة قيام دولة يهودية على الهضاب العالية لافريقيا الشرقية.

٣ ـ لا أدل على الخلاف الحاد بين رواد الصهيونية حول موضوع الموقع الجغرافي للوطن اليهودي من أن التصويت الذي جرى حول هذا الاقتراح البريطاني خلال «المؤتمر الصهيوني العالمي السادس» عام ١٩٠٦، بيّن أن عدد مؤيديه ومؤيدي البحث فيه بلغ ٢٩٢ مندوباً، وأن عدد معارضيه بلغ ١٧٦، وأن ١٤٣ مندوباً امتنعوا عن التصويت، بل إن المتدينين الأرثوذكس من الصهاينة أيدوا هذا المشروع، لأنهم رأوا أن من الأسهل أن نتخيل إنشاء كيان يهودي في افريقيا، أي في أرض

شتات أخرى، إذ من شأن ذلك أن يبقي على الممارسات والتقاليد الدينية التي تكوّنت بحكم وجود اليهود في ديار الشتات وعلى وفاق مع أوضاعهم فيها، بينما يتعذر ذلك في حال إنشاء وطن يهودي في أرض اسرائيل. فإنشاء مثل هذا الوطن في أرض فلسطين سوف يؤدي إلى طرح مشكلات تكيف عسيرة، بل إلى طرح مسألة إصلاح الدين اليهودي والشرائع اليهودية إصلاحاً يجعلها تتفق مع مستلزمات تسيير دولة حديثة. ويضاف إلى هذا أن اختيار أوغندا يوفر على اليهود البحث الشائك والعقيم في موضوع عودة المسيح وما تأخذ به النزعة المسيحانية بهذا الشأن، إذ ترى أن عودة اليهود إلى أرض آبائهم شأن من اختصاص الإله وحده، ولا تتم بقرار من بني البشر.

أما الذين عارضوا الاقتراح الخاص بإقامة دولة يهودية في أوغندا، والذين تمسكوا بإقامة تلك الدولة في فلسطين، فكانت معارضتهم تستند بالدرجة الأولى إلى تعلقهم التاريخي بأرض ارتبط بها، في زعمهم، المصير القومي لليهود. ولا يعني هذا أن «صهيونيي صهيون» هؤلاء، كما يدعون عادة، يعيشون في الماضي. فرفضهم إقامة الوطن اليهودي في أرض غير أرض فلسطين لا يرجع إلى إيثار خاص للأرض المقدسة مردّه إلى التعاقد الذي تمّ بين الإله وشعبه، كما يزعم بعض المتدينين اليهود الآخرين. وكل ما هنالك أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا ما يفعل بعض خصومهم الغارقين في التفسيرات الغيبية

والإرهاصات المسيحانية، فأحبوا «صهيون» من بُعد، في انتظار الخلاص المعجز، كما أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا ما يفعله خصوم آخرون ممن تقطعت السبل بينهم وبين الماضي اليهودي، فنادوا بإقامة سلطة يهودية على أي بقعة من الأرض. ذلك أن الأرض والأمة عندهم توأمان لا ينفصلان.

ثالثاً: التناقض حول العلاقة بين الصهيونية والاشتراكية

ومن التناقضات المهمة التي ظهرت في مرحلة مخاض الصهيونية التناقض بين الصهيونية الاشتراكية الماركسية ذات المنازع العالمية والصهيونية القومية التي تؤكد دور الأمة والدولة القومية إلى جانب تأكيدها أهمية العمل في بناء الدولة.

١ ـ لقد وجدت الصهيونية، كما رأينا، في هرتزل بطلها وقائدها. غير أنها وجدت أيضاً في ناحمان سيركين (Nahman Syrkin) الناطق البليغ باسم **«الصهيونية الاشتراكية»**. وكتاب هرتزل **دولة اليهود** لقي جواباً عنه في كتيب بقلم سيركين (واسمه الحقيقي بن اليعيزر (Ben Eliezer) الذي كان لاجئاً في برلين. واسم الكتيب: **المسألة اليهودية ودولة اليهود الاشتراكية**. ولا ينطلق سيركين في اشتراكيته من النظرية الماركسية المادية، إذ يمنح الشأن اللازم للعامل النفسي، وللفرد بالتالي في مسيرة التاريخ. ويرى ـ مقتفياً في ذلك تعاليم عالم النفس التجريبي ويليام ووندت ـ أن الإنسان لا تحركه الرغبات

المادية وحدها، بل تحركه أيضاً الأفكار والعواطف والدوافع اللاشعورية. ومن هنا تأخذ نزعته الاشتراكية طابعاً خاصاً، قوامه التأكيد على أهمية العمل ـ ولا سيما في الدولة اليهودية المولودة ـ وعلى أهمية النضال من أجل تحسين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للبروليتاريا اليهودية. ومن شأن ذلك أن ينعكس على حياة الأمة بأسرها. وعنده أن هذا النضال ينبغي أن يقود إلى خلق دولة قومية يهودية، سواء في فلسطين (وهي عنده أحد الاختيارات الممكنة) أو في سواها، حتى لو كان ذلك في افريقيا. وهكذا يعتبر سيركين النضال الاجتماعي الاشتراكي تابعاً للنضال القومي، على عكس ما تقول به الأطروحة الماركسية التي تمنح الصدارة للطبقات الاجتماعية فوق أي عامل تاريخي آخر، وفوق الأمة والدولة بوجه خاص، تلك الدولة التي مصيرها في نظر الماركسية إلى الزوال. وهكذا يقلب سيركين منطق الجدلية الماركسية، ويقترب إلى حدّ كبير من الاشتراكية الديمقراطية التي ازدهرت في أوروبا في ذلك الحين، ويرى أن الاشتراكية لا يمكن تحقيقها إلا عن طريق الأمة، وأن الطبقة العاملة ليست عامل إنكار للمبدأ القومي، بل عامل تأكيد وتنمية، ويرفض الأطروحة الماركسية التي تقول بزوال الهويات القومية بتأثير «تدويل» الطبقة البروليتارية.

٢ ـ لا يعنينا أن ندخل في تفاصيل نظرية سيركين التي تحاول الربط بين الاشتراكية والقومية والإنسانية، بل ما يعنينا ههنا أنها لقيت معارضة من قبل مفكرين صهاينة آخرين،

أبرزهم بير بروخوف (Ber Brokhov) (١٨٨١ ـ ١٩١٧) الذي حاول أن يبني الصهيونية على أسس ماركسية، معبراً بذلك عن اتجاه ماركسي ظهر في النمسا بوجه خاص، يحاول أن يوفق بين تحرير الأمة وبين تحرير الطبقة العاملة. وقد أوضح ذلك في نص نشره عام ١٩٠٥ عنوانه «صراع الطبقات والمسألة القومية»، وفيه يقدم نظرية مادية حول الأمة. ويعنينا من هذه النظرية، بالإضافة إلى اختلافها عن نظرية سيركين وصحبه، أنها اصطدمت بجملة من العقبات في الواقع اليهودي، وكان من الصعب التوفيق بينها وبين الهوية اليهودية. وأهم تلك العقبات التساؤل الذي طرحه الكثيرون إذ ذاك: كيف نفسر استمرار الشعور القومي اليهودي حتى اليوم؟ وكان جواب بروخوف عن ذلك جواباً مختزلاً، وهو أن الشعور اليهودي الجماعي قد استمر على الرغم من افتقاره إلى قاعدة أرضية يستند إليها، بسبب كره الدول المضيفة المستمر لليهود. ولقد كان من واجبه أن يبيّن، على العكس، ما هي أسباب هذا الكره، وما دور الشوفينية اليهودية والعزلة اليهودية وادعاء التفوق اليهودي في إذكائه.

٣ ـ في مقابل هذه الأفكار المتناقضة والتائهة التي دعا إليها رواد الصهيونية الاشتراكية، على تباين منازعهم، نجد نزعات أخرى مناقضة لها تماماً، تفهم العمل فهماً خاصاً غريباً. وأبرز من يمثل هذه النزعات أهارون غوردون (Aharon David Gordon) (١٨٥٦ ـ ١٩٢٢) ذو الأصل

الليتواني، وقد عاش في أوكرانيا، ثم أقام في فلسطين وعمره ٤٨ عاماً لكي يقيم فيها في زعمه ديناً حقاً للفئات العاملة. ومن معالم ديانته المحدثة هذه أن العقل لا يقدم إلا تصوراً مجزّأ وتحليلياً للعالم، والتجربة العملية وحدها هي التي تجعل الإنسان يدرك الأشياء إدراكاً مؤلِّفاً يشمل الوجود كله. ومن هنا يود أن يبيّن لليهود فضائل العمل الجسدي، لأن هذا العمل، حين يعيدهم إلى الاتصال بالطبيعة، يعيد إليهم الروح التي فقدوها خلال حياتهم الطويلة التي حرمتهم من الاستلقاء في أحضان الطبيعة والاتحاد معها. وإعادة الاتصال بالطبيعة اللامتناهية تعني عنده التغلب على تشويه الحياة الحديثة والارتباط بالتجربة الدينية من جديد. وكأنه في هذا يتبنى قولة تولستوي: الطبيعة هي ناقلة الدين. وهكذا ينتهي به الأمر إلى ضرب من الديانة التي تقول بوحدة الوجود، والتي تكشف عن النسمة الالهية في اهتزازات الغابات والأنهار، بل لا نغالي إذا قلنا أنه ينادي بضرب من الديانة الوثنية بفضلها يتم الاتحاد بأمّنا الأرض، رحم كل حياة. ويشطح به الخيال فيقول إن العمل الزراعي هو الطريق الجَدّد لبلوغ التجربة الصوفية البديئة، إذ يكشف عن أهمية البعد الكوني لدى الإنسان، إذ يدمجه دمجاً كاملاً بالأنا الجماعية ويجعله يرقى في معارج الإنسانية.

ويطول الحديث إن أردنا أن نفصل أفكار غوردون، وما أكثرها وما أشد غرابتها! والمهم في ما يعنينا أن هذه الأفكار تناقض الأفكار التي نادت بها الصهيونية الاشتراكية، على

اختلاف منازعها، وتناقض الأنظار التي طرحتها الصهيونية القومية، وتكشف مرة أخرى عن مدى التشتت والضياع والبحران في نشأة الحركة الصهيونية وولادتها، وتبين في خاتمة المطاف أن الصهيونية ولدت هجينة وملتبسة وحائرة، وظلت تحمل إرث ولادتها هذه عبر مسيرتها، بل زادت عليه وأغنته بتناقضات أمضى وأشد، تعشش في كيانها حتى اليوم وتزيد من فرص تردّيه وسقوطه يوماً بعد يوم.

رابعاً: التناقضات المتصلة باللغة

وقد كان بودنا أن نتحدث عن تناقضات أخرى كثيرة في مخاض الصهيونية هذا، لولا ضيق المجال. ومن أبرزها التناقض بين القول بالديمقراطية والقول بضرورة اللجوء إلى العنف والإرهاب، من أجل إقامة الدولة الصهيونية وبعد إقامتها. وحسبنا أن نشير عابرين إلى الخلاف الذي اشتد واحتد عند نشأة الصهيونية، بل قبلها، بين الداعين إلى إحياء اللغة العبرية وتجديدها، والذين يؤثرون الإبقاء على لغة اليديش (Jiddish) التي كانت شائعة لدى اليهود، وكانت لغة حياتهم اليومية. ونذكر عابرين أيضاً بهذا الصدد أن هرتزل نفسه كان ضد استخدام اللغة العبرية في الدولة اليهودية الموعودة، وكان يدعو إلى استخدام اللغة الألمانية. وقد اندلعت حرب فكرية ضروس بين اليهود بهذا الشأن، بل إن الصراع قد قام بين المنادين باستخدام اللغة العبرية التلمودية والمنادين باستخدام اللغة

العبرية التوراتية. وفوق هذا وذاك، وجد بين أوائل الصهاينة من يربط بين اللغة والقومية (من أمثال هيردر (Herder))، ووجد بينهم من يربط بين اللغة والدين، ووجد بينهم من يرى أن اللغة فوق الدين (من أمثال بن يهودا أبو العبرية الحديثة)، الذي وضع أول معجم ضخم للغة العبرية.

وعلى الرغم من أن حديثنا عن التناقضات في قلب مخاض الصهيونية على نحو ما رأينا حتى الآن، يكاد يتصف بالإيجاز المخل، فإنه أطلعنا مع ذلك على حقيقة لا نَني نؤكدها عبر هذه الكلمة، وهي أن الدعوة الصهيونية، دعوة مصطنعة ولدت عنوة وقسراً من خلال مخاض فكري متناقض وعسير، ولم تستطع منذ البداية أن تعالج تناقضاتها هذه، لأن علاجها متعذر بسبب زيف المقاصد الصهيونية أصلاً. فقد كانت الدعوة الصهيونية على نحو ما تحققت في الواقع عملاً سياسياً أولاً وقبل كل شيء، يطمح إلى خلق كيان يهودي، غير آبه بما في مثل هذا الطموح من تناقض مع واقع اليهود في العالم ومعتقداتهم المتباينة وأصولهم المختلفة وأفكارهم المتضاربة. ولتمرير لعبتها السياسية هذه، استعانت بالمراوغة الدينية والفكرية والعملية، وبالغموض ومحاولة التأليف بين ما لا يأتلف. فعجزت عن تعريف المقصود باليهود أو باليهودية، أو بالوطن القومي، أو بالقومية اليهودية، أو بالديانة اليهودية، أو بالقوانين اليهودية، أو بالتاريخ اليهودي، أو بالاشتراكية اليهودية، أو سوى ذلك. ولجأت في هذا كله إلى التأويل

وتأويل التأويل، من دون أن تُفلح في رفع الحجب عن أحجية مستعصية في الأصل والجوهر. وما تزال التأويلات تترى، وما يزال الغموض البديء يعكر الأجواء، وما تزال التناقضات تخرب وتمزق.

خامساً: التناقضات بين الدعوة الصهيونية والديانة اليهودية

ولا شك في أن أشد التناقضات فتكاً والذي عانته الصهيونية منذ نشأتها، وما تزال تعانيه حتى اليوم، هو التناقض بين الدعوة الصهيونية والديانة اليهودية.

١ ـ لقد سبق أن أشرنا أثناء حديثنا عن التناقضات في صلب الديانة اليهودية إلى الاتجاهات الدينية التقليدية وإلى الاتجاهات الدينية التي ظهرت بعد عصر التنوير. ويعنينا ههنا أن نشير إلى ما في قلب معظم هذه الاتجاهات، ولا سيما الاتجاهات الأرثوذكسية المتطرفة القديمة والجديدة والاتجاهات التقليدية المغالية، من أفكار معادية للصهيونية أصلاً وجوهراً. وقد كانت هذه الاتجاهات الدينية المغالية تمثل اتجاهاً سائداً وأساسياً في دنيا اليهود في أوروبا الشرقية بوجه خاص، وفي ألمانيا كذلك. فلقد كانت هذه الاتجاهات تصِم الصهيونية بأنها ثورة ضد الإله، ونفي لليهودية. ومن أبرز ممثلي هذه النزعة اسحق بروير (Issac Breuer) (١٨٨٢ ـ ١٩٤٦) الذي كان وجهاً بارزاً من وجوه الأرثوذكسية اليهودية الجديدة في ألمانيا،

ثم في فلسطين. وهو يحاول في مؤلفاته الكثيرة أن يبرهن أن اليهودية، في أصولها القديمة، حديثة دائماً وأبداً، وأن المزاعم السياسية التي أتت بها الصهيونية مزاعم خطيرة وعابثة، لأن اليهودية كانت دوماً مؤسسة سياسية ـ قومية. والشعب اليهودي، في ما يقول، له ملك وسيّد، هو الله، وله دستور، هو التوراة، ومن التهافت ومضيعة الوقت إذاً بناء دولة في فلسطين، ما دامت الحكومة الإلهية هي الإطار السياسي الطبيعي لليهود، وما دام «اله اليهود هو ملك سائر الأمم، واله السياسة والاقتصاد، واله سياسة التاريخ أيضاً»[٦]. وهكذا يتصف منطق بروير بخاصتين: **أولاهما** أنه يجدد التقليد الديني ويعصرنه حين يجعل من مراعاة القوانين الدينية عملاً سياسياً من شأنه أن يبرز النزعة القومية المقيمة في صلب التوراة في زعمه. **وثانيهما** أنه ينزع طابع الجدة والتجديد عن الصهيونية، إذ يبين أنها لا تدخل اليهود في فلك السياسة، كما تزعم، ما دام اليهود قد خضعوا طوعاً وكرهاً للإرادة السياسية العليا لله على نحو ما جاءت بها التوراة. واليهود لم يصبحوا أمة إلا عندما قبلوا القانون الإلهي كما نزل على جبل صهيون. ومن هنا فإنكار هذا القانون يعني إذابة الأمة التي لم تلتحم إلا بفضله. واليهودية التي لا تعترف بسلطان غير سلطان الله، ترفض رفضاً أساسياً الدولة وسلطتها المطلقة. والصهيونية مرفوضة لأنها تود أن تخضع اليهود لسلطة الدولة غير المشروطة بشرط، ولأنها تمثل ردة خطيرة حين تستبدل العبودية بالحرية.

٢ - في مقابل هذه النزعة الدينية المتشددة وموقفها السلبي الرافض للصهيونية، وجد تيار ديني لا يمثل إلا أقلية ضئيلة، وقف من الصهيونية موقفاً إيجابياً، يمكننا أن نطلق عليها اسم «التيار التقليدي الاصلاحي»، وهي تسمية من مزاياها أنها تبرز خاصتين متداخلتين يتصف بهما: فهو أولاً يبقي على محتويات التقاليد الدينية وقيمها، ويحاول ثانياً، في الوقت نفسه، أن يجد في قلب الكنوز الروحية التي انتقلت من جيل إلى جيل، مبادئ ومكتسبات قيّمة أُهملت ونُسيت، على علو شأنها. من هنا يختلف هذا التيار الديني الاصلاحي، الذي يود أن يعيد إلى التقاليد الدينية كامل نقائها وضياءها العريق، عن التيار الاصلاحي الذي يشكك في الطابع المقدس للتقاليد الدينية، والذي يود أن يقيم الدين على أسس جديدة بعض الشيء، سواء كانت دينية أو تاريخية. فالتيار الأول يظل مشدوداً إلى التقاليد شداً محكماً، والتيار الثاني يحاول الخروج منها.

ومن ممثلي هذا التيار اسحق يعقوب راينس (Yitzhak Yakov Reines) (١٨٣٩ - ١٩١٥)، الحاخام اللتواني الذي أنشأ عام ١٩٠٢ حزب مزراحي (Mizrahi) الشهير، ذلك الحزب الذي ضم المتدينين الأرثوذكس المستعدين للتعاون مع الصهيونية. وقد بنى نزعته الاصلاحية منذ البداية استناداً إلى منطق جديد يرى أن تبرير الصهيونية عن طريق الالتفات إلى أهمية الطابع المادي للواقع اليهودي لا يحول دون أن ننسب إلى

الصهيونية طاقات وإمكانات «مسيحانية» قد تخفى عن الأعين. ولئن كانت الصهيونية، في ما يقول: «خلوة تماماً من النزعة الروحانية»، ولئن كانت كلها «نزعة مادية وسياسية»، فهذا لا يعني أن المتدينين اليهود لا يجوز لهم، ولا ينبغي لهم، أن يعقدوا معها علاقة خلاص وإنقاذ.

وهكذا قدم هذا التيار الديني الاصلاحي دعماً للصهيونية، ولا سيما عندما ظهر في قلبه اتجاه عملي يدعو إلى إعادة توليد اليهودي عن طريق العمل الزراعي، تجلّى خصوصاً لدى الحاخامات الذين عرفوا في ما بعد باسم «الممهدين للصهيونية»، والذين شجعوا منذ عام ١٨٦٠ إنشاء جمعيات إستيطان زراعية في فلسطين، ورأوا في زراعة الأرض تجربة تطلق طاقات التجربة الدينية. ومن هنا انتقلوا إلى المناداة بالعودة إلى أرض إسرائيل وإلى إحياء الزراعة فيها. وقد التقت هذه الصهيونية الدينية التي منحت بعداً جديداً مشخصاً وعملياً لأرض إسرائيل على نحو ما تسميها، وللعودة إليها، مع الاهتمام الكبير بالشرق الذي بدأ ينمو في أوروبا منذ أيام حملة نابوليون بونابرت على مصر التي قادته حتى أسوار عكا عام ١٧٩٩.

٣ ـ ثمة تيار ديني آخر، أيد الصهيونية «الملحدة» على شاكلته، وعلى نحو غريب، ونعني به «التيار الصوفي»، على نحو ما نجده عند اسحق يعقوب كوك (Yitzhak Jacoben Kook) (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥)، ذلك اللتواني الذي كان همه الأول

أن يوفق بين العقل والوحي الإلهي. والذي تبنّى اتجاهاً صوفياً أقرب ما يكون إلى القول بوحدة الوجود. ومع ذلك ناقض نفسه ولم يجد أية صعوبة في أن يحمّل الصهيونية معنى دينياً، مهما تكن عصرية وغير دينية. فالصهيونية في أعماقها، كما يقول، لا تمثل طلاقاً وفراقاً مع اليهودية، بل تمثل طاقة جديدة تعيد الروابط بين الشعب اليهودي وأرض إسرائيل، وتمنح «الافتداء» المسيحاني واقعية حية حارة. ويمضي في الخداع الفكري حتى نهايته حين يبين أن الصهيونية العصرية، شأنها شأن أي عقيدة ملحدة، تملك شرعية مؤقتة ما دامت تتيح «تطهير الأقذار التي علقت بالدين... واستئصال الأوشاب التي تخفي عن الإنسان رؤية نور الله الحقيقي. وهذه الصهيونية الدنسة، بل المدنَّسة، من حيث مظهرها الخارجي، حين تتصدى للنظام الديني التقليدي، تُكره القوى الدينية الأرثوذكسية على أن تهجر يهودية العزلة والانكماش، من أجل بلوغ يهودية الانطلاق والسعة، يهودية التوفز، يهودية غزو العالم. والمرور بما هو دنس - في مزاعمه الغريبة - ضروري لبلوغ أطهر وأنقى وأنصع ما في المقدس. من خلال هذه المغالطات وسواها كثير، يحاول هذا التيار الديني أن ينقذ الصهيونية لاهوتياً. ولا خوف على الشعب اليهودي منها، في نظره، فجذور هذا الشعب مغروسة في القداسة دوماً. والصهيونية عنده في خاتمة المطاف لا يمكن إلا أن تكون من صنع الله.

٤ ـ إن الحديث عن كوك وشطحاته، وفتاواه المصطنعة، ومغالطاته الغريبة حديث يطول. وليس هذا قصدنا. وجل ما ابتغينا من وراء ذكر بعض أفكاره أن نكشف مرة أخرى مدى ما رافق الصهيونية منذ نشأتها من زيف وتناقض، ولا سيما في ما يتصل بالصلة بينها وبين الدين.

على أن ما يعنينا أكثر من هذا كله في أفكار «كوك» وأتباعه أن هذه الأفكار لجأ إليها الكثير من المتدينين بعد خلق دولة اسرائيل عام ١٩٤٨، ذلك أن كثيراً من أصحاب التيار الديني الاصلاحي رأوا في كوك الرائد المثالي الذي يغمس الصهيونية غمساً كاملاً في غمرة التقاليد الدينية حين يرى فيها «فجر الافتداء». فلقد انطلقوا من أفكاره ليجعلوا من دولة اسرائيل التي فرضها الغرب غيلة وقسراً، مرحلة حاسمة في طريق «المسيحانية». من هنا لقيت دولة اسرائيل منهم عطفاً خاصاً، وانطلقوا يحتفلون كل عام بيوم الاستقلال احتفالهم بعيد ديني. وقاد هذا النزوع للإبقاء على الطابع المقدس للدولة إلى إسهام المتدينين إسهاماً فعالاً في حياة الدولة. وهذا التناقض بين الطوباوية السمجة التي نادى بها كوك والواقع المختلف الذي يتجلى في ممارسة السلطة في دولة اسرائيل اضطلع بإيجاد مخرج منه، في زعمه، تيار ديني أخذ يدعو إلى «تحرير» يهودا وسامرا بعد حرب عام ١٩٦٧ بوجه خاص، ونعني به التيار المسيحاني الفعال والخطير الذي تمثله جماعة «غوش ايمونيم (Gouch Emounim)» الشهيرة، تلك الجماعة التي كانت تحاول

دفع الدولة إلى أن تكون في أفعالها جديرة بالمعنى الديني السامي الذي تحمله. وإذا ما نكثت الدولة بعهودها وخانت رسالتها النبيلة (التي تتجلى مثلاً في الإكثار من بناء المستوطنات اليهودية من أجل الإسراع في تحقيق «افتداء» اسرائيل) غدا من المشروع الوقوف في وجهها ومقاومتها حتى عن طريق اللجوء إلى العنف (كما جرى في العديد من الاغتيالات التي قام بها اليهود ضد العرب).

٥ ـ هكذا يقودنا التحليل من جديد إلى تناقض آخر ومفارقة أخرى. فالذين يسيرون على نهج كوك ويمنحون الصهيونية معنى دينياً، ويضفون على الدولة، في ذاتها كدولة، طابع القدسية، سوف نراهم في نهاية الأمر يذهبون في إنكار الدولة القائمة فعلاً ومخالفة قوانينها إلى أبعد من أتباع التقليدية الكلاسيكية الذين يرون في خلق الدولة كارثة أو حدثاً لا وزن له في أحسن الأحوال، ويتجاهلونه بالتالي أو يسخرونه لأغراضهم من غير حرج. وسنعود إلى آراء ومواقف «غوش ايمونيم» الخطيرة في ما بعد.

٦ ـ وقبل أن نختم حديثنا الخاطف عن التناقض بين الصهيونية والدين عند نشأتها، لا بد من أن نشير إلى ما وقع فيه رواد الصهيونية العلمانية أنفسهم من تناقضات في هذا الشأن، سواء صدرت عن قناعة منهم أو كانت مقصودة من أجل مهادنة أصحاب الاتجاه الديني. فالصهيونية، من حيث الأصل، نمت وتطورت في منأى عن التقاليد الدينية، بل

نزعت إلى تحقيق قطيعة معها، ونظرت إلى اليهودية باعتبارها «فولكلور الشعب اليهودي»، بل إن الذين اتبعوا أفكار «نيتشه» من الصهاينة (من أمثال يوسف حاييم برينر (Yoseph Haim Brenner) و ميخا برديشفسكي (Mickha Berdichevski)) نادوا بجرأة بإحداث انقلاب في القيم السائدة لدى اليهود، وحثّوا أبناء جنسهم على الانصراف عن دين متَّهم بأنه قيّدهم بأغلال من القواعد اللاانسانية غذّت لديهم يوماً بعد يوم الشعور المزمن بالغربة. ومن هنا، فلكي يحيا اليهود حقاً من جديد عليهم أن يكفوا عن أن يكونوا أتباع يهودية مجردة وضامرة طاب لها المنفى وترعرعت فيه، وعليهم بالتالي أن يصبحوا أناساً أحياء حقاً وشجعاناً وأبطالاً.

بل إن بن غوريون نفسه انطلق من البدء من مثل هذا الاعتقاد بأن الصهيونية ثورة ضد «المصير الوحيد لشعب وحيد»، وأن هدفها أن تنقل الشعب اليهودي من وضعه السائد، وضع شعب هو موضوع تاريخ مقدس، إلى وضع شعب هو صانع تاريخ غير ديني. وهرتزل نفسه، طرح منذ البداية في كتابه الشهير **دولة اليهود** السؤال المهم الآتي: «هل ستكون لنا في خاتمة المطاف دولة ثيوقراطية؟» وأجاب عن التساؤل بوضوح: «لا». فإذا كانت العقيدة، كما قال في ذلك الكتاب: «تجمعنا، فالعلم يجعلنا أحراراً... وإذا كان الجيش ورجال الدين في دولتنا المقبلة سوف تتوّج هاماتهم بالفخار جزاء وفاقاً على حسن صنيعهم، فإنهم لن يكون لهم ما يقولونه

ولن يكون لهم دور في الدولة اليهودية، لأنهم إن فعلوا خلقوا مصاعب داخلية وخارجية»[٧]. وقد بيّنت الأحداث كلها في ما بعد حتى يومنا هذا أن هرتزل كان مصيباً في نبوءته هذه. فما تزال المؤسسة العسكرية والمؤسسة الدينية مصدري جل متاعب اسرائيل في داخلها وخارجها. وقد كان شعار هرتزل على نحو ما عبّر عنه في البداية «كل إنسان حر وغير مقيد سواء فيما يتصل باعتناقه للدين أو عدم اعتناقه، أو فيما يتصل بقوميته. وإذا ما عاش بيننا من يعتنق ديانات أخرى أو مواطنون لقوميات أخرى، فإننا سوف نقدم لهم الحماية المشرّفة والمساواة أمام القانون»[٨].

وثمة من يقول إن مزاودات المتدينين الأرثوذكس، بالإضافة إلى الخلافات حول تسييس الدولة والصراعات الكثيرة التي واجهت هرتزل والإهانات التي تلقاها، أنهكت قواه وعجلت في موته المبكر عام ١٩٠٤ ولما يجاوز الرابعة والأربعين من العمر.

ومع ذلك ناقض هرتزل نفسه وأبدى عبر حياته تنازلات كثيرة حول الصلة بين الصهيونية والدين. ومما قاله في خطابه الذي افتتح به المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧: «إن الصهيونية تعني العودة إلى الديانة اليهودية حتى قبل العودة إلى أرض اليهود». وقد أراد بذلك طمأنة الشكوك الدينية، ولم يكن في باطنه يقصد مضمون ما يقول.

ومثله فعل بن غوريون، في كثير من أقواله ومواقفه.

ومن تلك الأقوال أن «الأمة اليهودية ليست مجرد وحدة سياسية وقومية، وإنما تتضمن إرادة أخلاقية، وتحمل منذ ظهورها على مسرح التاريخ رؤية تاريخية»، و«أنها الفلسفة التاريخية التي ورثناها ـ وورثها العالم كله ـ عن أنبياء اسرائيل»[٩].

وسنرى في ما بعد كيف مالأ بن غوريون وسواه من أصحاب الدعوة الصهيونية العلمانية أصحاب الاتجاهات الدينية المتطرفة، وقدموا لهم تنازلات عديدة، سواء في الأفكار أو في مجرى الحياة السياسية في اسرائيل. وسنرى بوجه خاص تراجعهم أمام جماعة «غوش ايمونيم» وسواها من الجماعات الداعية إلى توطيد الاستيطان اليهودي وطرد العرب.

وحسبنا أن نقول هنا عابرين إن بن غوريون لم يكن يعنيه أن تكون واقعة «العهد الإلهي» حقيقة أم لا، بل كان يعنيه أن هذه الأسطورة مغروسة في الوجدان اليهودي، ولذلك يجب الاحتفاظ بها حتى بعد أن ثبت أن الوعد الإلهي المزعوم هو مجرد أسطورة شعبية ليس لها أي أصل إلهي. ويشير إعلان قيام دولة إسرائيل إلى مثل هذا الاتجاه، إذ نجد فيه النص التالي:

«في أرض اسرائيل قام الشعب اليهودي، ففيها تكونت صورته الروحية والدينية والسياسية، وفيها عاش حياة استقلال رسمية، وفيها أنتج تراث ثقافة قومية وانسانية شاملة، وأورث العالم كتاب الكتب الأبدي»[١٠].

سادساً: التناقضات بين الصهيونية عند مخاضها واليمين الصهيوني المتطرف

١ - إلى جانب الحركات الدينية، كان من أبرز ما أثار المشاعر المتناقضة والمواقف المتناقضة داخل الحركة الصهيونية، الحركة الصهيونية اليمينية المنادية بالعنف والقوة. وقد كان أبرز ممثليها العدو اللدود لهرتزل فلاديمير زيف جابوتنسكي (Vladimir Zeev Jabotinsky) (١٨٨٠ - ١٩٤٠)، ذلك الزعيم الصهيوني الذي أزرى به بعض الصهاينة، من أمثال بن غوريون نفسه حتى وصل بهم الأمر إلى أن يطلقوا عليه لقب «هتلر» لاتهامهم أفكاره بالقرابة مع الفاشية، بينما رفع آخرون من شأنه ورنّقوه ورأوا فيه الزعيم الذي لا ينازَع للجماهير اليهودية. وقد ظل جابوتنسكي حتى وفاته «الابن الصعب» للصهيونية. وقد كان متعدد المواهب: فكان صحفياً وكاتباً مسرحياً وشاعراً وكاتب قصة ومترجماً وخطيباً مفوّهاً، فضلاً عن حذقه في المقالات السياسية. ولم يرضه أن يلتزم التزاماً سهلاً بالدعوة الصهيونية، بل حاول أن يضع تصوراً شاملاً حولها، يعوزه الاتساق من دون شك، ولكنه يستند إلى مفهوم فكري مدعّم بالحجج عن الإنسان والأمة والقومية.

والحديث عن هذا الزعيم الصهيوني في حاجة إلى سفر بكامله. وحسبنا منه التلميح والإشارة، في حدود ما يعنينا من أمره في ما يتصل بمقاصد بحثنا هذا.

أ ـ لقد انخرط جابوتنسكي في النشاط الصهيوني منذ طور مبكر، وتم اختياره مندوباً للمؤتمر الصهيوني الذي عقد عام ١٩٠٣، وطفق منذ ذلك الحين يؤكد وجوده كوجه بارز من وجوه الصهيونية الروسية، ووصل عام ١٩٢١ إلى المنظمة العليا القائدة لها. ولكنه ما لبث أن استقال بعد عامين احتجاجاً على سياسة حاييم وايزمان (Haim Weizmann) حول الدولة المنتدبة في فلسطين، نعني بريطانيا. ولن نتحدث عن أسباب هذه الاستقالة (وعلى رأسها اعتراضه على إسقاط شرقي الأردن من وعد بلفور)، وحسبنا أن نقول إنه عبّر في هذه الاستقالة عن الطابع الأساسي لسياسته: نعني المناداة بقومية ملتبسة المعالم، تهديها رغبة صارمة في أن تكون للوطن اليهودي دولة يملكها وحده. فالصهيونية عنده، بالتعريف، نزعة قومية، أي ايديولوجيا وحركة اجتماعية ـ سياسية تهدف إلى أن تقدم لليهود متكأ سياسياً وقاعدة سياسية، في إطار دولة في فلسطين. وقد أنشأ، من أجل تحقيق نظريته هذه «اتحاد الصهيونيين ـ المجدِّدين» عام ١٩٢٥ في باريس. واسم هذا الاتحاد وحده يكفي للتعبير عن مقاصد زعيمه. فهو يودّ مراجعة الصهيونية وتأويلها من جديد تأويلاً يزيل ما فيها من «خلط وإبهام ايديولوجي» ويردها بالتالي إلى حقيقتها البديئة، كما يرى.

ب ـ كان جابوتنسكي من الذين عارضوا هرتزل عام ١٩٠٣ في ما يتصل بمشروع استعمار أوغندا وإقامة وطن

يهودي فيها، كما سبق أن رأينا. وقد رأى أن لا مفر من إعادة الصهيونية إلى مقاصدها الأصلية، عن طريق التأكيد من جديد على طابعها السياسي الذي أكده هرتزل نفسه للتمييز بين أفكاره وما قالت به جماعة «أحباء صهيون» من إقامة مستعمرات في فلسطين لأغراض إنسانية. وهو يرى أن الصهيونية الرسمية قد انجرّت إلى الأخطاء التي وقعت فيها الهجرة (Aliya) الأولى إلى فلسطين (١٨٨١ ـ ١٩٠٣)، ولا سيما عندما أكد زعيم مثل وايزمان، منذ عام ١٩٠٧، على ضرورة رفد النشاط السياسي الديلوماسي الذي تقوم به الصهيونية بتشجيع النشاط العملي للمهاجرين إلى فلسطين، ذلك أن هدف الصهيونية في نظره لا يجوز أن تعكر صفوه اعتبارات ثانوية (اجتماعية واقتصادية)، بل لا بد أن يكون هذا الهدف واضحاً نقياً، يعني الاضطلاع بأعباء تحقيق المصير الشامل للشعب اليهودي في إطار دولة أكثريتها من اليهود على ضفتي نهر الأردن.

ج ـ يذهب جابوتنسكي إلى أبعد من هذا فيرى أن هدف بناء الوطن اليهودي يتناقض مع التقيد الدقيق بالقواعد الديمقراطية، ولا يرى بالتالي حرجاً من اتباع أساليب القهر والعنف، ولا سيما ضد العرب. فلو طبقت الدولة البريطانية المنتدبة على فلسطين قواعد الديمقراطية (أي مبدأ الأكثرية) لرجعت السلطة السياسية إلى العرب من دون شك. ومن هنا فالهدف القومي يستلزم عدم تطبيق مبدأ الأكثرية ما دام الإجماع يتنافى مع المطلب القومي الصهيوني. كذلك لا يأبه جابوتنسكي

بمبدأ حق تقرير المصير، ولا سيما أن مشكلة الفلسطينيين مرتبطة بالوطن العربي كله. ومعنى ذلك، في نظره، أن المسألة القومية ليست مطروحة بين اليهود المقيمين في فلسطين والفلسطينيين، وإنما هي مطروحة بين يهود العالم جميعهم والعرب.

د ـ إذا كنا نورد ههنا بعض أفكار جابوتنسكي فإننا لا نفعل ذلك فحسب من أجل بيان تناقضات الفكرة الصهيونية واضطرابها منذ ولادتها، بل لأن هذه الأفكار الغريبة واللاديمقراطية، بل الفاشية، لقيت تجاوباً لدى الكثير من اليهود وتركت في عقل الشعب اليهودي وضميره بذوراً فكرية ما تزال سمومها تمزق المجتمع اليهودي في اسرائيل.

أما في ما يتصل بإسهام جابوتنسكي في إذكاء نار التناقضات الصهيونية منذ ولادتها، فحسبنا أن نذكر أن أفكاره لقيت معارضة عنيفة من الصهاينة الاشتراكيين، الذين اتهموه بالفاشية، متأسين في ذلك خطوات الحزب الشيوعي. غير أنهم مع ذلك، وجرياً على تقاليد الصهاينة الموفِّقة الملفِّقة، حاولوا أن يؤلفوا بين أفكارهم ومناداة جابوتنسكي بأن الهدف الوحيد للصهيونية هو الهدف القومي، وذلك عن طريق التوفيق المصطنع الذي حاولوا القيام به بين الهدف القومي وهدف بناء دولة عادلة. ومثل هذا التوفيق المتهافت، الذي لا يمكن تحقيقه عملياً، محرّم سياسيًّا، كما هو محرّم في التوراة الجمع بين الكتان والصوف ونسجهما في لحمة واحدة.

يضاف إلى هذا أن جابوتنسكي يعود فيناقض نفسه حين يمتدح فضائل «النزعة الفوضوية» التي تفترض أن تزول بنية أية سلطة قسرية، وحين يرى أن هذا النمط الفوضوي يتفق مع جوهر التقاليد اليهودية. ومن هذا المنطلق، يرى أن السلطة في الدولة اليهودية الموعودة ينبغي أن تكون أقل سلطة ممكنة، مدافعاً بذلك عن إقامة دولة متواضعة، يقتصر دورها على «حماية أعضائها من الخطر» على حد قول هوبس من قبل.

هـ ـ من نقائض جابوتنسكي أيضاً، معارضته قيام الدولة اليهودية عاجلاً. فمثل هذا التعجيل في إقامة دولة اليهود سوف يقود، في نظره، إلى الاخفاق، لأسباب سكانية ديمغرافية على أقل تقدير. ولهذه الغاية يضع بريطانيا، الدولة المنتدبة، أمام مسؤولياتها، ولا سيما في ما يتصل بفتح أبواب هجرة اليهود إلى فلسطين على مصراعيها.

و ـ من نقائض أفكار جابوتنسكي كذلك دعوته العرقية، وقوله بأن الشعب اليهودي بقي على حاله الأولى حيث تكوّن ونما، وأن الخصائص القومية التي تكونت عند بداية التاريخ اليهودي عناصر ثابتة انتقلت من قرن إلى قرن من دون أن تتغير تغيراً يذكر. ويزيد على ذلك فيقول: «إن الأرض واللغة والدين والتاريخ المشترك لا تكوّن جوهر الأمة، وإنما تكوّن بعض خصائصها... وجوهر الأمة، والقلعة الأولى والأخيرة لوحدة كيانها، هما في الصفات الجسدية النوعية الخاصة، في «الوصفة» التي تتكون منها بنيتها العرقية. والدم عنده هو الذي

يصوغ الوحدة الغامضة للأمة. ولا حاجة إلى بيان تهافت هذه المنازع العرقية التي يرفضها العلم، والتي تلتقي مع مزاعم أمثال «هتلر» كما تلتقي مع مزاعم صهاينة آخرين، من أبرزهم موسى هيس (Moses Hess) الذي تحدث عن الخصائص العرقية والجسدية المميزة لليهودي، وفي مقدمتها «أنفه»، وماكس نوردو (Max Nordau) الذي كان ملازماً مخلصاً لهرتزل والذي أيّد نظرية العرق اليهودي كذلك. ومن هؤلاء المؤيدين العرقية اليهودية أيضاً ايغناز تسولشان (Ignaz Zollschan) الذي يبتهج بوحدة الدم اليهودي وبالكنوز العرقية «التي احتفظ بها اليهود بفضل منع الزواج المختلط». ومنهم أيضاً الفيلسوف مارتن بوبر (Martin Buber) الذي تغنّى، في محاضراته التي ألقاها في مدينة براغ عام ١٩١٠، بالدم «النضيد القاتم والكثيف الذي يتكون منه نموذج الشخصية وبنيانها» والذي يمنح الشعب اليهودي كياناً ذا جوهر حق!

ز ـ بالإضافة إلى هذه الأفكار الغريبة والمتناقضة مع آراء الكثيرين من زعماء الصهيونية، يقدم لنا هذا الزعيم باقة اخرى من التناقضات والمفارقات، يعنينا منها بوجه خاص موقفه من القوة والعنف.

وقصة اللجوء إلى العنف في تاريخ الحركة الصهيونية، وفي تاريخ اسرائيل، قصة يطول الحديث عنها. فمنذ عام ١٩٠٧ كوّن اسحق بن تزيفي ـ الذي أصبح ثاني رئيس لدولة اسرائيل (من عام ١٩٥٢ ـ ١٩٦٣) ـ مع أعضاء آخرين من

الحزب الماركسي «بولاي صهيون» (Poolei Tzion)، منظمة سرية اسمها «بارغيورا» (Bar Giora) هي التي ستصبح في ما بعد منظمة «هاشومير» (Hashomer) (أي الحارس). وقد كان اليسار الصهيوني في ذلك الحين، على غرار بعض منظمات اليسار الأوروبي، متنكباً الاتجاه السلمي ومدفوعاً بحكم الأحداث في ما يزعم إلى القبول باستخدام العنف والسلاح، من أجل الدفاع عن النفس كما يدّعي. أما اليمين الصهيوني، فلم يكن في حاجة إلى تبرير تأييده العنف، إذ كان يتبنّى بصراحة مفهوماً سياسياً وعقائدياً يرى أن للعنف دوراً حاسماً في التحرير القومي، من أجل تحرير الديار اليهودية، كما يزعم، ومن أجل تحرير الفرد اليهودي من عبوديته النفسية الداخلية.

وإلى مثل هذا ذهب جابوتنسكي، بل غلا في ذلك إلى أبعد الحدود حين أصر على تكوين جيش يهودي حقيقي. وقد حقق مشروعه هذا على نطاق ضيق عام ١٩١٧، حين كوّن في قلب الجيش البريطاني «الكتائب اليهودية» المؤلفة من خمسة آلاف مقاتل، والتي كان لها دورها في احتلال فلسطين.

وموقف جابوتنسكي هذا يصدر عن قناعات فكرية عميقة عنده. فهو يرى **أولاً**، أن العنف يلعب دور المؤسس في نشأة أية دولة. ويضرب الأمثلة على ذلك مما حدث عند نشأة القوميات في أوروبا. وهو يرى **ثانياً**، استناداً إلى الفلسفة السياسية التقليدية، أن السلطة في معناها العميق تعني سيطرة

الإنسان على الإنسان عن طريق القوة وعن طريق الحق أيضاً. واحترام القوة، في نظره، هو جوهر السياسة. وهو بعد ذلك يرى في الجيش مدرسة رائعة للتمرس بالنظام، والجيش عنده أداة مثلى للتربية القومية لأنه يحوّل الأفراد إلى مواطنين. ولهذا الجيش بالتالي دور حاسم ينبغي أن يضطلع به في عملية بناء الوطن اليهودي، ذلك الوطن الذي ينبغي أن يكون، ولو جزئياً، مجتمعاً عسكرياً، أي مجتمعاً يكون الجيش فيه أداة أساسية لبناء اللحمة القومية. ونقول عابرين: لعل الواقع الحالي القائم في اسرائيل يصدّق بعض نبوءات جابوتنسكي، على الرغم من أن هذا الواقع يكذب مزاعمه القائلة بأن الجيش هو الذي يعيد إلى الإنسان اليهودي هويته. فالواقع اليوم يبين أن الشقاق القديم والحديث حول هوية دولة اسرائيل ينعكس بقوة في التشتت الفكري والسياسي والعقائدي الذي يعانيه أفراد جيش اسرائيل.

ح ـ مع ذلك يعود جابوتنسكي ههنا أيضاً، شأنه دوماً، إلى التردد والتناقض مع نفسه، حين يقول إن الاعتراف بأهمية الجيش لا يعني الإكبار من شأن الحرب والدعوة إليها. وهو لا يقر، في ما يقول، إلا الحرب الوقائية، أي الحرب عندما تكون «الأداة الوحيدة لعلاج العالم». ونبوءة النبي اسحق التي تهيب بالشعوب ألا يشهروا السيف بعضهم على بعض وألا يتعلموا فن الحرب، تظل لدى هذا الزعيم الحائر البائر قولاً جديراً بالاحترام، ينقص من شأنه مع ذلك عنده إيمانه الحاسم

بمأساوية التاريخ الإنساني. ومن هنا لا نعجب حين نراه يجعل عنواناً لإحدى دراساته عام ١٩١٥، قولة «هوبس» الشهيرة: «الإنسان ذئب على أخيه الإنسان» (Homo Homini Lupus) وهو بالتالي لا يؤمن ولا يثق بالطبيعة البشرية. وهو يرى في خاتمة المطاف أن «حرب الجميع ضد الجميع حرب دائمة ومستمرة».

ط ـ هكذا ينتهي به الأمر إلى القول بأن الصهيونية تعني إرادة الحياة وتعني بالتالي «إرادة القوة»، على حد تعبير «نيتشه». ولا شأن للأخلاق عنده في ميدان السياسة، والسياسة لديه غير معنية بالبحث عن الخير والشر، بل هي معنية بالبحث في الضروري والممكن، وهو بحث يحدده الفصل القاطع بين الصديق والعدو. ولهذا العدو وجوه متعددة. وأبرز وجوهه في نظره النزعة ضد السامية التي تكوّن ألمانيا المصنع الأساسي لها. ومن وجوهه الصراع الذي لا يمكن اجتنابه بين اليهود والعرب، أولئك العرب الذين نما لديهم تدريجياً تعلق صادق بأرض فلسطين التي تبنّوها وكأنها أرضهم على حد قوله. وبهذا لم يبق أمام اليهود سوى خيار واحد، هو إقامة «جدار حديدي»، أي قوة قادرة في أرض إسرائيل، بحيث لا تستطيع أية قوة عربية أن تهدم بنيانها. وهذا يعني عنده، بصريح العبارة، مقاومة الهجمات المستمرة للقوميين العرب، والتهيؤ للمعركة النهائية من أجل فرض واقع دولة إسرائيل. وهذا النهج عنده، هو النهج الوحيد الذي يجب على الصهيونية

سلوكه. وليس ثمة، في ما يرى، أمر يدفع العرب إلى تبنّي موقف براغماتي وإلى إعادة النظر في موقفهم الرافض سوى تراكم الهزائم التي يوقعها اليهود بهم. والقوة وحدها هي التي تحمل الفلسطينيين على التنازل عن حقوقهم القومية وتدفعهم إلى الرضا بمصيرهم. ومن احتمالات هذا المصير عنده أن يهجروا فلسطين بإرادتهم وأن يحققوا مطالبهم القومية خارج فلسطين، عن طريق «الانتقال» (Transfert) إلى ما وراء نهر الأردن، وتكوين «وطن فلسطيني» هناك.

ونحن إذ نتريث عند هذه التفصيلات جميعها، لا نبتغي فقط بيان التناقضات بين أفكار جابوتنسكي وأفكار كثير غيره من الصهاينة، كما لا نود أن نقتصر على فضح أفكاره الفاشية وبيان تناقضاته هو نفسه مع ذاته، بل نود فوق هذا أن نفضح من خلال أفكاره المتطرفة، وهو الزعيم الصهيوني المرموق الذي لا تقل منزلته عن منزلة هرتزل، المقاصد والنوايا الصهيونية منذ ولادتها، وأن نكشف في بذور الصهيونية عما ذرّ قرنُه بعد ذلك من اتجاهات ومنظمات ارهابية قبل ولادة اسرائيل وبعدها، ولا سيما أن أفكار جابوتنسكي في تفصيلاتها كما لخصناها تكاد تُرهص بما حدث فعلاً من خسف وإرهاب وتهجير للفلسطينيين، وما قام ويقوم في أذهان قادة إسرائيل اليوم من حلول كان على رأسها وما يزال «نقل» الشعب الفلسطيني من دياره إلى ديار أخرى. ولا أدل على ذلك من أن جابوتنسكي شجع العمل العسكري لعصابة **«الإرغون»**

(Irgoun) التي تزعمها مناحيم بيغن منذ عام ١٩٤٤، تلك العصابة الإرهابية التي انشقت عن عصابة **«الهاغانا»** (Hagana) الإرهابية أيضاً التي ارتبطت بالحركة الصهيونية المجددة منذ عام ١٩٣٧. ولا عجب فأفكار عصابة «الارغون» تكاد تكون نسخة ثانية عن أفكار جابوتنسكي الداعية إلى العنف. فهذه العصابة ترى أيضاً مثله، كما ورد في البيان الذي أعلنه «بيغن» عام ١٩٤٤، أن العنف باني الشعوب، وأن الأمم لا تولد من خلال حلف عقائدي، بل من خلال قعقعة السلاح، وأن الدم الذي يراق في ساحات المعركة هو الرباط المقدس والعروة التي لا تنفصم بين المواطنين، وأن وجود الأمة ليس محصلة حق مشروع، بل هو وجود يؤخذ غِلاباً واغتصاباً.

٢ ـ على أن المناداة بالعنف والقوة ليست وقفاً على جابوتنسكي ومن اتبعه، بل هي ظاهرة كادت تصبح شائعة في السنوات التالية لولادة الحركة الصهيونية، ولا سيما لدى اليمين الصهيوني. وهي ما تزال حتى اليوم العنصر الديناميكي الفعال في الكيان الاسرائيلي.

ومن أبرز رواد هذا الاتجاه اليميني المتطرف الداعي إلى العنف **الثالوث الروسي** الذي ظهر في التسعينيات من القرن الثامن عشر، والمؤلف من ييهوشيا ييڤن (Yehoshua Yevin) وأوري تزيڤي غرينبرغ (Uri Tzevi Greenberg) وآبا أحيمير (Abba Ahimer)، هؤلاء المفكرين الذين ناضلوا في البداية في صفوف الحركة العمالية، ثم أصبحوا بعد ذلك الناطقين باسم

اليمين القومي المتطرف. ولا يتسع المجال للحديث المفصل عن أنظار هذا الثالوث. وحسبنا أن نتريث قليلاً عند أفكار اثنين منهم، هما أحيمير وغرينبرغ.

أ - يرى أحيمير (١٨٩٧ - ١٩٦٢) أن المثل الأعلى الجماعي يتحقق عبر الألم والعذاب، وأن الطريق الجَدَد إلى إسرائيل يمر بالعذاب والاضطهاد، وأن العربي كائن ماكر مخادع لا يفهم إلا لغة القوة، وأن الصهيونية، التي تنتسب إلى الحضارة الغربية المتفوقة، في مقابل الشرق المتخلف والبربري، ينبغي أن تكون القوة السياسية التي تسيطر على عرب فلسطين من دون أي تحفظ أو هوادة.

وههنا أيضاً يبرز التناقض داخل الصهيونية، ذلك أن أحيمير هذا يرى أن العدو الحقيقي للصهيونية كما يفهمها ليس خارجها، بل في قلبها وفي قلب الشعب اليهودي. وأخطر من يمثل هذا العدو الصهيونيون الاشتراكيون، من أمثال بن غوريون وبن تزيفي وسواهم من الذين يهادنون المحتل البريطاني.

وبدهي أن تحمل أفكار أحيمير هذه اتجاهات معادية للحرية والديمقراطية، ومؤيدة لسيطرة الأقلية الفعالة على الأكثرية المنفعلة المستسلمة. وعنده أن الديمقراطية التي تم تهجينها ينبغي أن تحلّ محلها سيطرةُ النخبات ودكتاتورية الزعيم الذي تؤيده حماسة الشباب. وقد بلغ به الأمر أن كتب طائفة من المقالات تحت عنوان «يوميات فاشي»، يمتدح فيها الفاشية،

ويرى فيها حركة بعث قومي حقيقي.

ب ـ أما زميله أوري تزيفي غرينبرغ (١٨٩٧ ـ ١٩٨١)، فهو يمثل اليمين المتطرف في أقصى درجاته. ولقد أقام في فلسطين منذ عام ١٩٢٤ وأسهم في صحيفة **دافار** (Davar) التي تمثل اتحاد «الهيستدروت» العمالي. وطفق يبحث جاهداً عن حل لمشكلة اليهود الأزلية والأبدية، نعني مشكلة «الهوية القومية». وقد كان شاعراً ينظم القصائد الملتهبة الملتزمة، وجلّها اتهام لأبناء العقائد الدينية الأخرى: كاتهام المسيحيين بالنزعة المعادية للسامية، واتهام العرب بتعطشهم للحقد، بالإضافة إلى اتهام اليسار الصهيوني بالاضطراب الخلقي، واتهام النساء بالغرور، واتهام التربية الملحدة، وسوى ذلك كثير. أما جوهر الانتساب إلى اليهود عنده فتحدده صفتان لا جدال حولهما: **الدم والأرض**. والوحدة البيولوجية الكاملة والثابتة لدى الشعب اليهودي، لا تقيم بينه وبين الشعوب غير اليهودية تبايناً نسبياً محدوداً، في نظره، بل تقيم اختلافاً وفارقاً مطلقاً. ومن هنا فالحوار الوحيد مع غير اليهود هو قعقعة السلاح. ويبلغ به إيمانه وتقديسه العرق اليهودي المزعوم حدّ الادعاء بأن الماضي أبو الحاضر وبأن «ما سيكون في المستقبل كان في الماضي، وما لم يكن في الماضي فلن يكون أبداً». عن طريق الدم إذاً سوف يكون البعث. واليهود سوف يحققون وجودهم في أرض اسرائيل باللجوء إلى حرب لا ترحم ولا تبقي ولا تذر ضد أولئك الذين يقاومون مشروعهم. ويبكي شاعرنا بكاء

مراً على ما أصاب القدس، مدينة داود التي هجرها الأنبياء، والتي ملأها أبناء العمومة العرب «بنهيق الحمير» ودنسوها «بروث الأغنام والبشر». ويدعو في خاتمة المطاف إلى تحرير اسرائيل بحد السيف، وإلى بناء «ملكوت اسرائيل» بالقوة وإلى إقامة دكتاتورية ايديولوجية، نموذجها الأمثل الاتحاد السوفياتي، مهمتها تحقيق الرؤية المسيحانية لملكوت اسرائيل.

وههنا أيضاً نتوقف لنقول إننا لا نقصد فقط من وراء عرض مثل هذه الأفكار اليمينية الجهنمية إلى فضح ما في الصهيونية من جذور دكتاتورية، وإلى كشف التناقضات العجيبة التي رافقت ولادتها، بل نهدف من وراء ذلك أيضاً، وبوجه خاص، إلى الربط بين هذه الاتجاهات الصهيونية التوتاليتارية والدكتاتورية وما وقع فعلاً من تطبيق لها قبل ولادة اسرائيل وبعدها. وحسبنا، لبيان هذا، إن كان الأمر يحتاج إلى بيان، أن نشير إلى أصداء هذه الأفكار في عصابة «شتيرن» الشهيرة التي أسسها أبراهام شتيرن (Abraham Stern)، والتي كان اسمها الرسمي «المنظمة العسكرية القومية في اسرائيل». ولئن كان أحيمير شاعراً ومنظراً، فقد كانت عصابة «شتيرن» منذ نشأتها الأداة الفعالة لأفكاره وأفكار سواه من رواد اليمين الصهيوني المتطرف. وكان همها الأول، كما نعلم، توجيه الجهود جميعها شطر التخلص من البريطانيين في فلسطين. وقد وضعت هذه العصابة «بياناً» ايديولوجياً عام ١٩٤٠ يتألف من ثمانية عشر مبدأ تهدف جميعها إلى التحرير القومي لفلسطين عن

طريق أشكال العنف جميعها، وعلى رأسها اغتيال ممثلي السلطة المنتدبة. بل إن زعيمها شتيرن حاول أن يجد لهذه الغاية حلفاء له من بين القوى المعادية لبريطانيا، نعني إيطاليا الفاشية وألمانيا النازية. وقد سبق لجابوتنسكي قبله أن غازل الفاشية خلال الثلاثينيات، ولكن اتصالاته مع السلطة الفاشية ظلت محدودة: وقد جددها شتيرن حين اقترح على الدوتشي (Duce) مد يد العون إلى الصهيونية في مقابل إقامة دولة تعاونية في فلسطين تتبع خطوات إيطاليا في ما يتصل بالسياسة الخارجية. ثم عمل بعد ذلك على عقد حلف مع ألمانيا الهتلرية قبل أن يغتاله الانكليز في شهر شباط/ فبراير من عام ١٩٤٢. وتثبت وثيقة مؤرخة في الحادي عشر من كانون الثاني/ يناير ١٩٤١، تم نقلها إلى سفارة «الرايخ» الألماني في اسطنبول، نص الاقتراح الذي قدمته عصابة «شتيرن» أثناء لقاء تم في بيروت بين موفدها والمسؤول عن منطقة «المشرق» في وزارة الخارجية الألمانية. ويشير هذا النص إلى ما جرى في بيروت من مباحثات، وما تم من اتفاق حول حلّ المسألة اليهودية في أوروبا وإسهامها الفعال في الحرب إلى جانب ألمانيا[١١]. وعلى أية حال فوشائج القربى واضحة بين معتقدات عصابة «شتيرن» والنظم الدكتاتورية، إيطالية كانت أو ألمانية أو روسية. فهذه العصابة ـ شأنها شأن قرينتها «الإرغون» ـ نادت، كما نادى أحيمير وسواه من رواد اليمين المتطرف ـ بالوحدة البيولوجية للشعب اليهودي الذي حافظ على «نقاء دمه القومي» عبر العصور، كما نادت باحتلال أرض الميعاد كلها (من الفرات إلى

النيل)، وبطرد العرب الغرباء عنها، وبإقامة دولة عبرية تمثل قوة طاغية في البحر الأبيض المتوسط. وقد حال موت شتيرن بينه وبين تحقيق نزعته المسيحانية الشاملة هذه، وحمل الراية بعده - تحت اسم عصابة «**ليحي**» (أي المقاتلين من أجل حرية اسرائيل) - ثلاثة رجال، بينهم اسحق شامير الذي غدت له الكلمة العليا في هذه المنظمة، والذي قاد مجموعة من الأعمال الإرهابية ومن عمليات الاغتيال ضد العرب وضد البريطانيين، بين عام ١٩٤٤ وعام ١٩٤٨. وقد عرفت هذه الفترة تحولاً ايديولوجياً فريداً من نوعه، إذ تبنّت عصابة «ليحي»، بدءاً من عام ١٩٤٣، مواقف مؤيدة للاتحاد السوفياتي. وقد نحت المنظمة لهذه الغاية منحًى اشتراكياً، واقترحت إنشاء جمهورية اشتراكية يهودية في فلسطين، الأمر الذي جعل مفكراً مثل يوسف هيلر (Yosef Heller) يصف هذا الاتجاه الهجين الغريب الذي اتجهت إليه عصابة «ليحي» بالاتجاه «القومي - البولشيفي». وبعد ولادة دولة اسرائيل، بدّل اسحق شامير موقفه بعض الشيء وانتسب إلى حزب حيروت (Herout) عام ١٩٨٣، ليصبح خلفاً لمناحيم بيغن في رئاسة الوزراء.

* * *

وبعد، هذا طرف من التناقض والصراع الذي أثارته الحركة الصهيونية اليمينية المتطرفة، والذي قاد بوجه خاص إلى نمو النزاعات الدكتاتورية الفاشية وازدهارها وتوليدها عصابات خطيرة نقلت أفكارها إلى أرض الواقع، واتخذت من أبشع

أشكال القوة سبيلاً إلى تطبيق مقاصد الصهيونية وبناء دولة اسرائيل في خاتمة المطاف.

وإذا نحن نظرنا إلى مسيرة الصهيونية من خلال هذه التناقضات الضخمة التي ولدتها مفارقات التيار اليميني المتطرف - فضلاً عن تلك التي ولدتها صراعات الاتجاهات الدينية مع الصهيونية كما رأينا من قبل - كان في وسعنا أن نردها إلى محاولة الصهيونية الجمع بين أمرين لا يجتمعان: **أولهما** ادعاء إقامة حكم علماني عصري وديمقراطي، عن طريق إقامة دولة تعددية تضم مجتمعاً متعدد الأعراق. **وثانيهما** نظرة اليهود منذ القدم إلى العمل السياسي نظرتهم إلى عمل ساقط. وقد كان الجمع بين الملك (Melekh) والحاكم (Shofet) والكاهن (Kohen) والنبي (Navi) ضالةَ اليهود دوماً، ولكنها ضالة متعذرة إن لم تكن مستحيلة. فاللجوء إلى النظام السياسي في نظر اليهود سقوط وتردٍّ كما قلنا، لأنه في جوهره دليل نقص وشرخ في النظام الذي يريده الله. تشهد على ذلك خطيئة آدم وحواء اللذين طردا من الجنة لأنهما نقضا العهد مع الله حين حاولا الوصول إلى معرفة الخير والشر. وهذه الخطيئة (مضافاً إليها خطيئة قتل قابيل لهابيل) تمثل في نظر اليهود الدليل على ارتباط الفعل السياسي بالشر. ومن هنا فالشأن السياسي لا يمثل الحرية، بل يمثل الضرورة. وإقامة سلطة سياسية لها قوة الإلزام أمر لا يحمل في ذاته أية قيمة، وإنما هو مجرد أمر لازم لا يستغنى عنه أو شر لا بد منه، ومن هنا كانت النزعة

الشائعة لدى المفكرين اليهود هي اعتبار السلطة السياسية أمراً نسبياً، بل وهمياً، لأن السلطة الحقيقية لله وحده ولأولئك الذين يتّبعون أوامره. والخلاص الحق يكمن في احترام قانون الإله، وليس في احترام أية سلطة سياسية. فالحكم لله لا للناس.

وقد حاولت الصهيونية مقاومة مثل هذا التفكير وقلب نظام القيم اليهودية، عن طريق الدعوة إلى خلق دولة مستقلة. وآمن بضرورة مثل هذا الانقلاب الديني والفكري «الأخوان اللدودان»، نعني بن غوريون ومناحيم بيغن على حد سواء، وذلك حين أعلن أولهما عام ١٩٤٤ «ثورة اليهود في وجه المصير الوحيد لشعب وحيد»، وحين أعلن ثانيهما ثورة إسرائيل ضد الوجود البريطاني في فلسطين، في العام نفسه. ولكن جهود روادها في هذا السبيل ما لبثت حتى تفرقت بها السبل، ودار الصراع بوجه خاص بين القائلين بسلطان السياسة والرافضين إياها. وقد أخذ هذا الصراع شكلاً متطرفاً ومغالياً لدى اليمين الصهيوني الذي تبنّى موقفاً مبايناً لسائر التوقعات، نعني المناداة بتضخيم الشأن السياسي وتعزيز دوره، حتى غدا شعاره: «السياسة بدايةً، والسياسة نهايةً». وهذا ما وجدناه لدى أمثال جابوتنسكي الذي حاول أن يقيم توازناً بين الشأن السياسي والشأن الاجتماعي، ولكن المفهوم العضوي للأمة الذي كان يدافع عنه قاده إلى تخريب ذلك التوازن. وعند ذلك، لم تعد السياسة عنده مجرد قوة لفرض الاتساق

والانسجام على مجتمع متباين الاتجاهات، بل أدى إكباره شأن السياسة وسلطتها الشاملة إلى الوقوع في إغراء الاتجاهات التوتاليتارية الدكتاتورية التي خضع لها فكر متطرفي اليمين (من أمثال أتباع عصابة «ليحي» وعصابة «بريت هابيريونيم» (Brit Ha-Biryonim). وهكذا ارتد الشأن السياسي إلى القوة وحدها لدى اتباع اليمين الصهيوني المتطرف، وأصبحوا لا يرون في العمل السياسي إلا مجابهة لا ترحم مع الأعداء، أي مع العرب أولاً الذين «يعادون معاداة لا رجعة فيها قيام دولة اسرائيلية شرق أوسطية»، ومع شعوب العالم بعد ذلك، تلك الشعوب «المعادية للسامية بطبعها». وهكذا رفضت الصهيونية في خاتمة المطاف أي دور للأخلاق، ما عدا أخلاق المسؤولية، في ما يقولون، التي يمكن أن تأمر باستخدام وسائل غير مشروعة من أجل الوصول إلى الغاية المرسومة.

الفصل الثالث

التناقضات بعد ولادة اسرائيل وحتى اليوم

مدخل

رأينا في الجزءين السابقين بذور التناقض والصراع في صلب الديانة اليهودية منذ ظهورها، وفي صلب الدعوة الصهيونية لدى ولادتها وعبر تطورها حتى ولادة دولة إسرائيل. ورأينا كيف أَنْتَشَت هذه البذور يوماً بعد يوم، وكيف ولّدت تناقضات وصراعات متوالدة ومتكاثرة ككرة الثلج تصعب الإحاطة بها، تجعل من تاريخ اليهودية وتاريخ الصهيونية شبكة معقدة متنافرة من الرؤى والأفكار والسياسات المتنابذة. وسوف يستبين لنا مما يلي، كيف صبّت هذه التناقضات والصراعات في الكيان الاسرائيلي بعد إقامته، وكيف حملت فيه وأتأمت وأنتجت واقعاً حالياً ممزقاً، ووهناً معنوياً قتّالاً لا نغالي إذا قلنا مع العديد من كتاب اليهود أنفسهم إنه يهدّد وجود إسرائيل في صميمه.

فلقد انتقلت إلى الكيان الاسرائيلي آثار كل ما حملته قرون الشتات اليهودي من اتجاهات وأفكار صاغها الواقع المتباين المتنافر في ديار الشتات المختلفة، وصاغتها المذاهب الدينية والفكرية المتناقضة التي استوحيت من هذا الواقع المتناقض، ورسمت معالمها المتعارضة المواقف المختلفة من اليهود في المجتمعات التي عاشوا فيها، وزادت في ضياعها وضلالها الفلسفات والايديولوجيات المتنافرة حول الدين والأمة والقومية واللغة التي قال بها مفكرو أوروبا من اليهود وغير اليهود، والتي رأينا طرفاً منها. وزاد ضغثاً على إبّالة ظهور الحركة الصهيونية، تلك الحركة المصطنعة التي تكاد لا ترتبط بواقع اليهود وحاجاتهم الفعلية وآفاق مستقبلهم، إلا في جانب واحد: هو رد الفعل ضد النزعات المعادية للسامية. أما في ما جاوز ذلك، فالصهيونية تمثل انفصالاً شبه كامل عن واقع اليهود وما ينطق به من حاجات، بل هي في كثير من جوانبها تمثل انفصاماً مع هذا الواقع وتضليلاً له، وقسراً له وإذكاء لتناقضاته. وقد رأينا كيف زيفت الصهيونية الحقائق وكيف لَوَت أعناق الأفكار من أجل دعم وجهة نظرها. ولا غرابة بعد ذلك أن تولد في صلبها وقلبها نزعات متناقضة، وأن تتصدى لها اتجاهات معارضة لها، على نحو ما رأينا. ولا غرابة فوق هذا أن تكون التركة التي خلفتها لدولة اسرائيل تركة تشبه «القنبلة الموقوتة». ولعلنا لا نجانب الحقيقة إن قلنا: إن كل شيء في اسرائيل سوف ينتهي نهاية سيئة لأن كل شيء بدأ بداية سيئة.

وفي وسعنا أن نجعل الصراعات التي تمزق الكيان الاسرائيلي منذ ولادته حتى اليوم في الصراعات الآتية:

١ ـ صراع اليهودي الشرقي (السفارديم) ضد اليهودي الأوروبي (الأشكنازيم).

٢ ـ صراع اليهودي الأوروبي الشرقي ضد اليهود الأوروبي الغربي.

٣ ـ صراع اليهودي المتدين ضد اليهودي العلماني.

٤ ـ صراع اليهودي الذي ولد في إسرائيل وعاش فيها (جيل «السابرا» (Sabra)) ضد اليهودي المهاجر الجديد الذي أتى إليها في سنوات النصر والنجاح.

٥ ـ صراع اليمين الاسرائيلي ضد اليسار الاسرائيلي.

٦ ـ صراع طبقة الأثرياء مع طبقة المحرومين.

٧ ـ صراع العربي ضد اليهودي.

ومن المهم أن نذكر، كما يقول الكاتب الاسرائيلي سمحالنداو، أن أي عامل من هذه العوامل لا يشكل وحده خطراً فعلياً، وأن الخطر يكمن في اجتماع هذه العوامل المختلفة وتشابكها، ولا سيما التشابك بين ثلاثة منها: العوامل السياسية والعوامل الدينية والعوامل الطبقية.

ولا يتسع المجال للحديث المفصل عن كل واحد من هذه

العوامل، وسوف نكتفي بالإشارة الخاطفة إلى اثنين منها، متريثين بوجه خاص عند أفدحهما خطراً، نعني الصراع الديني - العلماني.

أولاً: الصراع بين اليهود الشرقيين واليهود الأوروبيين

تطلق صفة اليهود الشرقيين على اليهود الذين هاجروا من البلدان الشرقية، بما فيها بلدان الشرق الأوسط، ولا سيما تلك التي كانت خاضعة للسلطة العثمانية. وهم يعرفون عادة باسم «السفارديم»، على الرغم من أن هذه الصفة تحمل في الأصل معنى أضيق. بينما يعرف اليهود الغربيون باسم «الأشكنازيم». وقد جرى العرف على تسمية اليهود الشرقيين باسم «اسرائيل الثانية» منذ عام ١٩٥٩. وقد ارتفعت نسبتهم إلى مجموع السكان من ١٠ بالمئة من سكان اسرائيل عام ١٩٤٨ إلى ٣٠ بالمئة عام ١٩٦٧، وإلى ٦٠ بالمئة عام ١٩٨٠، وإلى نحو ثلثي سكان اسرائيل اليوم، بينما يشكلون في الجملة ١٠ بالمئة من مجموع يهود العالم. ولم يقم هؤلاء «السفارديم» بدور يذكر في الحركة الصهيونية، أو في نشأة الاستيطان اليهودي في فلسطين، أو في إقامة الدولة اليهودية، أو في حرب عام ١٩٤٨.

وميول هؤلاء السفارديم في جلها تنزع إلى الاتجاه الديني التقليدي وسنرى كيف غذوا الحركات والأحزاب الدينية واليمين الاسرائيلي.

وبعد حرب تشرين الأول/ اكتوبر عام ١٩٧٣، أخذت الهوة تتزايد بين يهود الشرق ويهود الغرب، ولم يحاول حزب العمل أن يقدم حلاً لهذه المشكلة الاجتماعية السياسية. ونتيجة لذلك أدار يهود الشرق ظهورهم لحزب العمل الصهيوني وأيّدوا أحزاب اليمين المتطرفة التي كان يتزعمها مناحيم بيغن (وهو مغربي بولوني) في انتخابات الكنيست التاسع (عام ١٩٧٧) والعاشر (عام ١٩٨١)، مما أتاح لحزب «الليكود» أن يتولى السلطة في اسرائيل للمرة الأولى. ويرى الكاتب الاسرائيلي يوحانان بيرس أن لجوء الشرقيين إلى اليمين الاسرائيلي يرجع إلى أسباب ثلاثة: **أولها**، البحث عن هوية سياسية ذاتية لهم، وعن منزل لا يأوون إليه ضيوفاً، بل يريدون تسلم مفتاحه. **وثانيها**، الأزمة الاقتصادية وما يرافقها من نظرتهم إلى حزب العمل على أنه حزب أرباب العمل. **وثالثها**، تحول الديانة اليهودية لديهم من بعد ثقافي إلى بعد سياسي، واعتقادهم بأن اليمين يمثل أكثر من سواه الانتماء إلى الشعب اليهودي والقومية الاسرائيلية.

وهكذا منذ أن قام الاستقطاب الديني الطائفي في إسرائيل، ولا سيما بعد عام ١٩٨١، بدأت تتشكل أحزاب سياسية على أساس طائفي تعكس رغبة اليهود الشرقيين في الوجود على الساحة السياسية وجوداً يتناسب وحجمهم وقوتهم داخل المجتمع الاسرائيلي. فظهر عام ١٩٨١ حزب «تامي» (حركة تقاليد اسرائيل)، ويضم في صفوفه أكثرية من يهود

المغرب برئاسة أهارون أبو حصيرا. وفي عام ١٩٨٤، ظهر حزب «شاس» (حراس التوراة السفارديم)، وحصل على ستة مقاعد في انتخابات عام ١٩٨٨، وقد كان الشريك الوحيد بين الأحزاب الدينية لحزب العمل. وقد تولّى الدعاية لحركة «شاس» هذه في تلك الانتخابات، بين بدو النقب، شاب عربي (عمره خمسة وثلاثون عاماً) يدعى سلامة أبو دعبس. وقد عقدت حركة «شاس» اتفاقاً ائتلافياً مع «حزب العمل» مؤلفاً من ١٤ بنداً. واعتبر انضمام «شاس» إلى حكومة رابين بمثابة زلزال في الاتجاه «الحريدي» (الديني التقليدي المتشدد) الذي تنتسب إليه «شاس».

ثانياً: الصراع داخل الحركات الدينية وبين هذه الحركات والاتجاهات العلمانية

لا شك في أن هذا الصراع أخطر الصراعات وأقتلها، وقد رأينا بذوره منذ ولادة الحركة الصهيونية، ونشير في ما يلي إلى أهم مظاهره منذ أن قامت دولة اسرائيل حتى اليوم.

ومن العسير أن نحيط بأبعاد هذا الصراع جميعها، كما أن ما هو أشد عسراً أن نحصي الحركات الدينية الشتيتة في اسرائيل وأن نتحدث عن اتجاهاتها المختلفة. على أن من المهم أن نذكر أن معظم هذه الحركات الدينية التي تفعل فعلها في المجتمع الاسرائيلي وترهقه وتثقل كاهله وتعرضه لمخاطر كبيرة، لها جذورها منذ مولد الحركة الصهيونية، كما رأينا، بل لها

جذورها في الديانة اليهودية منذ نشأتها وعبر تطورها على مر العصور، كما ذكرنا منذ بداية هذه الدراسة.

وسوف نكتفي في ما يلي، بالحديث عن تلك الحركات الدينية على نحو ما انتهت إليه في الكيان الاسرائيلي بعد نشأته، متخيرين التوقف بوجه خاص عند انعكاساتها على مجرى الحياة السياسية في اسرائيل[١٢].

١ ـ الأحزاب الصهيونية الدينية الأرثوذكسية

انطلقت الصهيونية الدينية، كما سبق أن رأينا، من فكرة أساسية تتمثل في معارضة ما يؤمن به عامة اليهود وما يدعون إليه من ارتقاب «المسيح المنتظر» كي يقودهم صوب فلسطين، من أجل إقامة «مملكة اسرائيل»، ذلك أنها رأت أن هذا الاعتقاد الذي ساد بين اليهود قرابة ستين جيلاً، حال بين اليهود والقيام بأي عمل سياسي يعيدهم إلى «أرض الميعاد».

وقد ظهرت هذه النزعة الصهيونية الدينية، ولو على شكل قرزمات أولية، منذ نهاية القرن الثامن عشر، وتطورت بعد ذلك، ولا سيما بعد ظهور الحركة الصهيونية. وقد عزّز هذه النزعة قيام دولة اسرائيل وبلغت أوجها بعد حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧.

وأهم هذه الأحزاب الصهيونية الدينية التي اشتد أزرها بعد ولادة دولة اسرائيل، وبعد عام ١٩٦٧ بوجه خاص،

والتي لعبت، وما تزال تلعب، دوراً بارزاً في الحياة السياسية والاجتماعية في اسرائيل، الأحزاب الآتية:

أ ـ حزب «المزراحي» و«حزب العامل المزراحي»

وقد ظهر هذان الحزبان في طور مبكر قبل ولادة دولة اسرائيل، ثم استمر نشاطهما بعد قيامها، وحصل أولهما، عام ١٩٥١، على مقعدين في الكنيست، بينما حصل الثاني على ثمانية مقاعد.

ب ـ الحزب الديني القومي (مفدال)

هو حصيلة اتحاد حزبي «المزراحي» و«العامل المزراحي» في خارج اسرائيل منذ عام ١٩٥٥، ثم في اسرائيل نفسها عام ١٩٥٦. وقد تشكلت داخل «المفدال» مجموعة من الكتل بلغ عددها إحدى عشرة كتلة. وبعد حرب تشرين الأول/اكتوبر عام ١٩٧٣، برز بين هذه الكتل حركة مهمة وخطيرة هي حركة «غوش إيمونيم» (كتلة الإيمان) بقيادة الحاخام حاييم دروكمان. وسوف نتحدث عنها مفصلاً في ما بعد. وقد حصل «المفدال» منفرداً في انتخابات الكنيست السابع عام ١٩٦٩ على ١٢ مقعداً، ولكنه انتكس في انتخابات الكنيست الثامن عام ١٩٧٣ وحصل على عشرة مقاعد. وقد عارض في برنامجه الانتخابي أي مشروع يتضمن تنازلاً عن أجزاء من أرض اسرائيل التاريخية، أرض الأجداد في زعمه. ولقد أخذت قوة «المفدال» تضعف بعد ذلك، ولا سيما بعد الانقسامات الكثيرة

التي تمّت داخله، ولم يحصل في انتخابات الكنيست الثاني عشر عام ١٩٨٨ إلا على خمسة مقاعد، وحصل في انتخابات الكنيست الثالث عشر عام ١٩٩٢ على أربعة مقاعد فقط.

وأبرز الاتجاهات الفكرية والايديولوجية لحزب «المفدال» دعوته إلى ألا تقوم بين البحر ونهر الأردن إلا دولة واحدة هي دولة إسرائيل، ورفضه إقامة دولة فلسطينية بالتالي، فضلاً عن اعتباره الجولان جزءاً من أرض إسرائيل.

ج ـ حزب «تامي» (قائمة تقاليد اسرائيل)

اشتركت هذه القائمة لأول مرة في انتخابات الكنيست العاشر عام ١٩٨١ في أثر انسحاب أهارون أبو حصيرا من «المفدال». وقد حاول أبو حصيرا أن يستقطب المتدينين اليهود الشرقيين (يهود المغرب في الأساس) وفاز بثلاثة مقاعد، وانضم إلى الحكومة الائتلافية برئاسة بيغن وزيراً للعمل، إلى أن استقال في نيسان/ ابريل عام ١٩٨٢ في اثر إدانته بفضيحة مالية. وقد تراجع دور حزب «تامي» شيئاً بعد شيء، ولم يحصل على أي مقعد في الكنيست الثاني عشر عام ١٩٨٨ ، وكذلك في الكنيست الثالث عشر عام ١٩٩٢. أما أفكار «تامي»، فإنها تعكس مواقف حزب «المفدال» نفسها، حتى إنها سميت باسم «مفدال شمال افريقيا».

د ـ كتلة «موراشا» (التراث)

هي كتلة انشقت عن المفدال بزعامة الحاخام المتطرف

حاييم دروكمان. وتعتبر من أكثر الأحزاب الدينية تطرفاً، سواء على الصعيد الديني أو على الصعيد السياسي، وتلتقي مواقفها مع مواقف «الليكود» وحركة «حيروت».

هـ ـ حزب «ميماد» (معسكر الوسط الديني) أو اليهودية العقلانية

يعتمد هذا الحزب على اليهود الذين من أصل أوروبي، ولا سيما الناطقين باللغة الانكليزية. ولم يحصل هذا الحزب على أي مقعد في انتخابات الكنيست الثاني عشر عام ١٩٨٨. ويسيطر على هذا الحزب الحاخام يهودا عميطل الذي يرتبط بحزب العمل. وقد ذاعت شهرته أيام حرب لبنان عام ١٩٨٢، ولا سيما بعد أحداث مذبحة صبرا وشاتيلا. فلقد استنكر تلك المذبحة التي تمت بالتواطؤ مع جيش الدفاع الاسرائيلي ووصفها بأنها تدنس اسم الرب، ولن يُغفر لمرتكبيها حتى في عيد الغفران.

وقد كان الحاخام عميطل يريد أن يكون حزبه حزباً دينياً قومياً معتدلاً. وقد تعاطف مع اسحق رابين عندما لم يجد حزباً يمكن أن ينحاز إليه انحيازاً كاملاً، وكان يزعجه أن الجمهور الديني انحاز بأكمله إلى اليمين، وكان يخشى أن يكون ثمة انطباع لدى ذلك الجمهور بأن هنالك توافقاً بين تعاليم التوراة ووجهة النظر اليمينية المتطرفة. وهو يرى أن المشكلة اليوم تكمن في أن اصطلاحات مثل «المسيح» و«المسيحانية» قد تحولت إلى مرادفات لأشياء غير مفهومة، وإلى نزعة صوفية

مرفوضة. فالمسيحانية عنده تعني أن الأوان قد آن لكي يمسك شعب اسرائيل بزمام مصيره، ولا تعني أن كل شيء قد أصبح مؤكداً. ويرى أن «مسيحانية» «غوش إيمونيم» مسيحانية كاذبة.

ومن تناقضات الحاخام عميطل وما أكثرها، موقفه عن محادثات السلام الجارية. فهو يرى أن الجولان هي من حيث قدسية «أرض اسرائيل» جزء من البلاد في ما يزعم. ولكن في حال نجاح محاولات التوصل إلى سلام حقيقي فمن الممكن، في رأيه، أن يكون هناك مجال لتسوية اقليمية. ومثل هذا يقوله في ما يتصل بالضفة الغربية، على أنه يرفض أن يكون للحاخامات دور في رسم الخرائط السياسية لإسرائيل، أو في إصدار فتاوى شرعية بشأن عدم الانسحاب.

٢ ـ الأحزاب الدينية «المسيحانية» المعارضة للصهيونية (أحزاب تكفير الدولة)

تنطلق اليهودية الأرثوذكسية المتشددة (الحريدية) المسيحانية والمعارضة للصهيونية ولدولة اسرائيل من أن الصهاينة يخفون الملابس الصهيونية القذرة تحت ثياب طاهرة ومقدسة. وترى أن هؤلاء الصهاينة أناس لم يقبلوا السيادة السماوية ولا الإرادة الإلهية، ولا يتبعون سبيل التوراة، ويتفاخرون بأنهم قادرون على تحقيق السلام لليهود وإنقاذهم من محنتهم الحالية، وهي مزاعم تنكرها جذرياً نصوص متعددة من التوراة والتلمود والمدراش، لأن الخلاص المسيحاني لا يمكن أن يتم بوسائل

بشرية. وترى هذه الأحزاب الدينية المتطرفة بالتالي أن مساعي الصهاينة الرامية إلى تأسيس دولة قومية يهودية في فلسطين تتنافى مع العقائد اليهودية المتصلة بانتظار مجيء المسيح على نحو ما وردت في أسفار العهد القديم، وفي المصادر المتأخرة للديانة اليهودية.

وقد سبق لنا أن تحدثنا عن جذور هذه الحركة الدينية المتطرفة وعن موقفها من الصهيونية. ويعنينا منها هنا آثارها في الواقع الاسرائيلي بعد ولادة اسرائيل حتى اليوم. ويعنينا بوجه خاص موقفها من الدولة الاسرائيلية بعد ولادتها. وفي هذا المجال نجد تيارات عديدة أبرزها تياران:

أولهما يقول بعدم قدسية إسرائيل استناداً إلى تفريقه بين «دولة اسرائيل» و«أرض اسرائيل». فدولة اسرائيل حتى عام ١٩٦٧ قامت على جزء من «أرض اسرائيل»، وعلى ذلك الجزء الذي لا يمثل قيمة ذات بال في التقاليد اليهودية. أما بعد عام ١٩٦٧ فقد حدث تطابق، في نظره، بين «أرض اسرائيل» التي تحمل معنى دينياً وبين «دولة اسرائيل» التي تحمل معنى سياسياً علمانياً. ونتيجة لذلك اقترب أتباع هذا التيار شيئاً فشيئاً من موقف الأوساط اليمينية في اسرائيل.

أما التيار **الثاني** فهو تيار قديم جديد، تمثله المدارس الدينية اللتوانية بزعامة الحاخام الشهير أليعازر مناحم شاخ الذي نظر إلى دولة اسرائيل نظرة براغماتية مغالية، فلا هي «بداية الخلاص» كما يعتقد حزب «غوش إيمونيم» ولا هي «مقدمة

لبداية الخلاص» كما تدّعي حركة «أغودات يسرائيل»، بل إن «أرض اسرائيل» نفسها في نظره غير مقدسة.

وفي الجملة، أن الاتجاهات الدينية التقليدية الأرثوذكسية (الحريدية) على اختلاف منازعها يجمعها العداء للطبيعة العلمانية للدولة (تكفير الدولة) واعتبار اسرائيل نوعاً من أنواع «المنفى» الروحي. وقد اختلفت هذه الاتجاهات في ما بينها، واتخذت مواقف متباينة تتدرج من التعايش مع إسرائيل كدولة غريبة يجب التعامل معها كما يتعامل اليهود مع الدول الأجنبية، إلى إضفاء صبغة دينية مجددة على دولة اسرائيل ومنح بعض الشأن لمفهوم الاستقلال الديني السياسي لليهود من خلال الدولة، إلى إضفاء صبغة القدسية على الوجود اليهودي فوق «أرض اسرائيل».

٣ ـ الأحزاب الدينية «المسيحانية» الأشكنازية

يضم هذا الاتجاه الديني أحزاباً عدة، أهمها حزب «أغودات يسرائيل»، ولهذا نكتفي بالتوقف عنده:

إن «أغودات يسرائيل» منظمة عالمية دينية وسياسية لليهود المتشددين، مبدأها الأساسي حل قضايا اليهود جميعها وفقاً لروح التوراة. وقد تم تأسيس هذا الحزب في بولندا منذ عام ١٩١٢.

ولقد رفضت «أغودات يسرائيل» خلال فترة الانتداب

البريطاني على فلسطين سلطة مؤسسات «اليشوف» العبرية المنظمة، وقاطعت «كنيست يسرائيل» وحاربت المؤسسات التعليمية العبرية، وقاومت فرض اللغة العبرية كلغة حديث.

وعند إعلان دولة اسرائيل عام ١٩٤٨، كان حزب «أغودات يسرائيل» قد قطع شوطاً طويلاً في عملية تقبل فكرة الاندماج في إطار الدولة اليهودية، بعد سنوات من النهج الانعزالي عن مؤسسات «اليشوف» اليهودية في فلسطين. وهكذا تحول هذا الحزب منذ ذلك العام إلى حزب اسرائيلي يعمل في إطار مؤسسات الدولة.

وتختلف اليوم وجهات النظر داخل «أغودات يسرائيل» تبعاً للأصول التي ينتسب إليها أتباعه. فما يهم الذين هم من أصول هنغارية مثلاً هو الفصل التام بين المتدينين (الحريديم) وبين العلمانيين. وما يهم الذين هم من أصول بولندية (وأكثرهم من «الحسيديم») هو التنظيم والتعليم، وهكذا...

وقد شارك حزب «أغودات يسرائيل» في الانتخابات العامة كافة التي جرت في اسرائيل. وقد فاز في انتخابات الكنيست الثالث عشر عام ١٩٩٢ بأربعة مقاعد. كما شارك في الحكومات الاسرائيلية الثلاث الأولى (خلال الفترة من عام ١٩٤٩ إلى ١٩٥٢)، وبعد ذلك الحين انتقل إلى صفوف المعارضة، إلى أن تمّ تشكيل حكومة «الليكود» في حزيران/ يونيو ١٩٧٧، إذ شارك في الائتلاف الحكومي من دون أن يمثل في الحكومة تمشياً مع قرار «مجلس كبار علماء التوراة»

بعدم السماح لأي من زعمائه السياسيين بتولي منصب وزاري.

ويؤيد الحزب الحل السياسي للمشكلة الفلسطينية ولو على حساب الأرض، ويعارض تجنيد النساء في الجيش، ولا يتعاطف مع الكثير من المظاهر العلمانية لدولة اسرائيل، ويرفض بالتالي المشاركة في الاحتفال بيوم استقلال الدولة، ويتجاهل يوم ذكرى «الجنود الذين سقطوا»، ويتشدد في الالتزام بالزي التقليدي الذي اعتاد اليهود ارتداءه منذ أن كانوا في شرق أوروبا حتى اليوم.

ومن أبرز مظاهر الصراع الذي جرى بين هذا الحزب، ومعه المتدينون جملة، والعلمانيين، والذي اشتعل أواره خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة، وقائع تلك المعركة البرلمانية التي جرت بين المعسكرين عام ١٩٩٢. وقد دارت المعركة حول مسألة لقيت، وما تزال تلقى، ردود فعل متناقضة وانفعالية لدى مختلف الأحزاب الاسرائيلية ولدى اليهود الاسرائيليين بوجه عام، نعني مسألة تهرب شباب «اليشيفوت» (أي المعاهد الدينية) من الخدمة في جيش الدفاع الاسرائيلي.

وعلى المستوى العقائدي السياسي، يقف حزب «أغودات يسرائيل» من قضايا مثل «أرض اسرائيل» وملكيتها واستيطانها ومعاملة الأغيار فيها، مواقف تشبه في برنامجها السياسي برامج الأحزاب الدينية المتطرفة (مثل حزب «هتحيا»، أي «البعث» وحزب «المفدال»). وهنالك عناصر ذات نفوذ فيه تعارض التخلي عن أي شبر من «أرض اسرائيل». لكن نظرته الدينية

الشاملة تؤكد أن خلاص الشعب اليهودي وجمع شتاته واستعادة أرضه المقدسة ستتم فقط على يد «المسيح المنتظر»، وأن أية محاولة لاستعجال الخلاص ومصادرة دور المسيح كفر وهرطقة. وهذه النظرة تجعل كثيرين من زعمائه النافذين على استعداد للقبول بالتخلي عن أجزاء من «أرض اسرائيل» في الوقت الراهن، إذ لا يوجد في الوقت الراهن ما يشير إلى أن عملية الخلاص الإلهية قد بدأت. ويشذ عن هذا الاعتقاد داخل «أغودات يسرائيل» أتباع طائفة «حبد» الذين يعتقدون أن زعيمهم الحاخام «ليوفافيتش» هو المسيح المنتظر، وأن عملية الخلاص جارية فعلاً الآن، ولذلك فمن المحظور دينياً التخلي عن أي جزء من «أرض اسرائيل» أو التساهل مع أعداء اسرائيل.

٤ ـ القوى الدينية «الحريدية» غير الحزبية المعارضة للصهيونية[١٣]

هي في مجملها جماعات تعادي الصهيونية وتكفر دولة اسرائيل وتعيش في عزلة «غيتية» داخل المجتمع الاسرائيلي. وتضم طوائف أربع: الطائفة الحسيدية، والطائفة الحريدية، وطائفة «ساطمر» الحسيدية، وجماعة «انطوري كرتا».

أ ـ الطائفة الحسيدية

ظهرت هذه الطائفة في شرق أوروبا خلال القرن الثامن

عشر، وحملت معها قدراً كبيراً من الخرافات، لا مجال للحديث عنها، وقد أسهمت هذه الحركة الدينية الغيبية في إعداد بعض قطاعات الجاليات اليهودية في شرق أوروبا لتقبل أفكار الصهيونية، وذلك بعزلها عن الحضارات والحركات الفكرية الجديدة السائدة في مجتمعها عن طريق إشاعة أفكار صوفية حلولية شبه وثنية. وقد صعّدت هذه الحركة الدينية من حبّ اليهود لأرض اسرائيل، ومن كره «الأغيار» (غير اليهود) وزادت من حدة النزعة القومية اليهودية.

وتعتبر شخصية «الصدّيق» (الذي يعرف باسم «ربي Rebbi» تمييزاً له من «الراف» أو «الرابي» (Rabbi) في اليهودية التلمودية) إحدى الأفكار الرئيسية في الشريعة الحسيدية على المستويين الروحي والمادي على حد سواء.

وقد أفرزت الحسيدية اتجاهات متعددة من أشهرها «حسيدية حبد». وحركة «حبد» هذه حركة يهودية دينية رئيسية في فلسطين منذ فترة «اليشوف» (الاستيطان اليهودي القديم). وتقول مصادرها إن مؤيديها في العالم يقدرون بمليون يهودي، وإن اتباعها الملتزمين بها يقدرون بنحو مئة وخمسين ألف شخص. وثمة من يقول إن لـ «حبد» مليونين ونصف من الأتباع، بينهم أكثر من عشرة آلاف في إسرائيل. ومقر قيادة الحركة حالياً في بروكلين في مدينة نيويورك. ولها في الولايات المتحدة نحو ثلاثمائة فرع ومركز، وتنتشر في نحو مئة وعشر مدن أمريكية، وتدير داراً للطباعة والنشر، وتمتلك

صحيفة خاصة بها. وقد اعتاد رؤساء الولايات المتحدة، ولا سيما رونالد ريغان استقبال وفود من الحركة من حين إلى آخر. وفي عام ١٩٨٨، انتخب «الراف» (الحاخام) يوسف ليبرمان أحد أتباع الحركة عضواً في مجلس الشيوخ الأمريكي عن ولاية كونكتيكت.

أما التجمع المركزي الثاني لـ «حبد» فهو في اسرائيل حيث يتزايد أتباعها يوماً بعد يوم. وهنالك نحو مئة وأربعة وأربعين مركزاً لهذه الحركة في إسرائيل، خصوصاً في «كفر حبد» التي تقع بين القدس وتل أبيب.

وهنالك آلاف الدعاة «الحبديين» الذين يعملون في أكثر من ثلاثين دولة. ويقدر عدد مراكز حركة «حبد» في العالم بنحو ألف وخمسمئة مركز، تتوزع على قارات العالم الست. وتمتلك الحركة محطة إذاعة خاصة في فرنسا.

وقد كان موقف الحركة من الصهيونية موقفاً نقدياً حاداً. وهي ترى أن جوهر رسالتها اليوم يكمن في الحفاظ على الوجود اليهودي من جانب، وإعداد العالم لقدوم «المسيح المخلص» من جانب آخر.

وعلى الصعيد السياسي، اعتبرت الحركة نفسها حركة يهودية دينية غير حزبية. وهكذا لم تشترك منذ قيام اسرائيل في أية انتخابات قطرية أو محلية.

وينتسب الشباب الحريدي إلى هذه الطائفة تطوعاً، مقابل

وعود بدخول الجنة، على الرغم من أن قادتها يعترفون بأن «الأمكنة المئة والأربعة والأربعين ألفا الأفضل في الجنة قد تم حجزها».

وزعيم هذه الحركة (و«الأدمور» السابع لها) هو الحاخام مناحم شنيوسون ميلوفافيتش، وهو ذو مكانة رفيعة في أوساط الجمهور المتدين في إسرائيل. ويتهمه خصومه بأنه يزعم بأنه «المسيح المنتظر». وهو يدير امبراطورية «حبد» بحزم شديد، يحيط به خمسة وعشرون ألفاً من أتباعه بصورة دائمة. ولم يغادر بروكلين منذ عام ١٩٥٠ حين تولى زعامة الحركة. وهو ذو نزعة عرقية صارمة، إذ يرى أن لا مجال للمقارنة بين اليهودي وغير اليهودي، وأن اليهودي يحتل المنزلة العليا بين سائر الشعوب، بينما تقع بقية الأمم في الدرك الأسفل. وعنده أن جسد اليهودي يختلف اختلافاً كلياً عن أجساد سائر الأمم. وما يصحّ على جسد اليهودي يصحّ على روحه. وبينما تنتسب أرواح شعوب العالم إلى طبقات الدنس الثلاث، تنتسب روح بني إسرائيل إلى الروح القدس ذاتها.

وفي ما يتصل بالمناطق المحتلة يعد حاخام «حبد» هذا من الصقور. فهو يرى أن لا بد من استيطانها من دون أن تؤخذ في الحسبان ردود فعل العرب أو معارضة الولايات المتحدة الأمريكية. ويرى كذلك أن على اسرائيل أن تقف موقفاً صلباً غير متساهل في علاقتها مع الولايات المتحدة، وأن أحداث المستقبل سوف تثبت صواب رأيه. وقد أعلن بعد حرب عام

١٩٦٧ «أن على إسرائيل ألا تعيد بوصة واحدة من هذه الأراضي». كما أنه اعتبر مجرد الحديث عن الحكم الذاتي للفلسطينيين تدنيساً للرب وتدنيساً للمقدسات.

وقد كان هذا الحاخام من القادة «الحريديين» القلائل الذين أيدوا حركة «غوش إيمونيم» ومشاريعها الاستيطانية.

وقد سيطرت عليه منذ أن تولى منصبه فكرة مركزية واحدة هي ظهور «المسيح المنتظر» وقرب قدوم الخلاص. وقد أعلن عند تعيينه أن «الفترة التي نعيشها هي الفترة التي لا بد أن يأتي فيها المسيح». وعندما اندلعت حرب ١٩٦٧ اعتبر أن النصر الذي حققته اسرائيل يشير إلى بداية الخلاص وقرب ظهور المسيح. وعندما اندلعت حرب عام ١٩٧٣ طالب باحتلال دمشق كشرط لتحقيق الخلاص. وخلال حرب لبنان طلب اقتحام بيروت تحقيقاً للخلاص كذلك. وكثيراً ما ألمح إلى أنه في الحقيقة هو «المسيح المخلص». وقد حالت ظروف كثيرة دون أن يأتي إلى إسرائيل ليعلن أنه «المسيح»، ومن بين هذه الأسباب حاله الصحية. وقد أدى ذلك إلى حال من الارتباك وخيبة الأمل لدى اتباع «حبد».

وقد لقي ادعاء هذا الحاخام بأنه «المسيح المنتظر» معارضة شديدة في الأوساط العلمانية، بل في الأوساط الدينية و«الحسيدية» و«الحريدية» نفسها. وقد انفجر أتباع طائفة حسيدية «ساطمر» بالضحك حين سمعوا هذا النبأ، واتهموا الحاخام بالهوس والجنون.

ب ـ «الحريديم»

يطلق اسم «الحريديم» (ومفرده «حاريد» بمعنى ورع تقي) على اليهود المتدينين المغالين في التشدد، والذين يعادون الصهيونية ويكفرون الدولة، ويعيشون في عزلة «غيتية». وهم واثقون من أنهم يملكون الحقيقة بفضل فهمهم واطلاعهم على الكتب اليهودية المقدسة (ولا سيما التلمود) وإجادة فهمها، ويرون أن طريقهم هو الطريق الصائب الوحيد.

ويقدر عدد أتباع الطائفة الحريدية، بحسب مصادرها، بثلاثين ألف نسمة. وتَقرن الحريدية بين الشيوعية كعقيدة ملحدة والصهيونية كعقيدة كافرة، وتسعى بالتالي إلى كل ما من شأنه غسل اسرائيل وتنظيفها من شوائب الصهيونية، وإقامة «حكم التوراة» فيها.

ويكاد يؤلف القطاع الحريدي، كما يقول ليسك «دولة داخل الدولة» من دون أن يقدم أي تنازل ايديولوجي أو ديني. ويقول ليبوفتش فيلسوف إسرائيل الذي توفي عام ١٩٩٤، والذي كان صهيونياً ومتديناً (ولكن على شاكلته)، مشيراً إلى الحريدية ونزعتها الانعزالية المتطرفة: «إن في إسرائيل شعبين، لا يستطيعان أن يعيشا معاً جنباً إلى جنب، ولا أن يتزوج كل منهما من الآخر، ولا أن يعملا معاً، ولا أن يأكلا معاً».

ج ـ طائفة «ساطمر» الحسيدية

هي طائفة من أكبر الجماعات الحسيدية في العالم،

ومقرها الرئيسي في «ڤلسبورغ». وقد كان يتزعمها الحاخام يوئيل طايطلبويم المعروف بلقب حاخام «ساطمر». وقد نشر هذا الحاخام بعد حرب عام ١٩٦٧ «كتيباً عن الخلاص والتغيير»، هو من الكتب الأولى التي بحثت في المغزى الديني والروحي لتلك الحرب. ويرى خلافاً للكثيرين من المتدينين وغير المتدينين أن النصر الذي تحقق فيها لا يمثل معجزة الهية. وهو يرفض، انطلاقاً من موقفه المعادي للصهيونية العلمانية ولدولة اسرائيل ذات الطابع العلماني، أن تكون حرب عام ١٩٦٧ وكل ما ترتب عليها تعبيراً عن مساعدة الرب العليا لشعب اسرائيل، لأن هذا الشعب هو شعب من المارقين عن الدين وغير جدير بمعجزة إلهية تسانده.

ويبلغ عدد أتباع هذه الطائفة نحو ربع مليون شخص، أي نحو تسعة أضعاف حركة «حبد» في الولايات المتحدة الأمريكية. وهم قليلون في إسرائيل بسبب معاداتهم الفكرة الصهيونية.

د ـ جماعة «أنطوري كارتا»

«أنطوري كارتا» اسم آرامي يعني حراس المدينة. وهم جماعة دينية انشقت عن حزب «أغودات يسرائيل» عام ١٩٣٥ بسبب رفضها أي تعاون أو لقاء مع الحركة الصهيونية.

وفي الشارع الحريدي في إسرائيل اليوم أكثر من خمس جماعات دينية تحمل اسم «أنطوري كارتا» لا يختلف بعضها عن

بعض إلا في صندوق البريد. وأتباعها يقدرون ببضعة آلاف في إسرائيل، وبأكثر من نصف مليون خارجها. وهم جميعاً يلتقون عند فكرة واحدة، هي معاداة الصهيونية، والانعزال عن دولة اسرائيل، بوصفها نموذجاً للغطرسة الآثمة، ولأنها حركة «ملحدة ومهرطقة» انتهكت العهود الثلاثة التي قطعها اليهود للرب قبل خروجهم إلى المنفى، وهي ألا يسببوا الألم لـ «الأغيار» الذين يقيمون بينهم، وألا يحاولوا احتلال أرض إسرائيل بالقوة، وألا يتعجلوا الأمور. وقد رأى أتباعها بالتالي أن إعلان استقلال إسرائيل نقض أسس قوانين الشريعة، ولذلك رفضت الاعتراف بالدولة وقوانينها. وأعلنت أن أعضاءها لن يهبوا للدفاع عن هذه الدولة إذا ما تعرضت للاعتداء. وقد احتجت لدى الأمم المتحدة على ذلك الإعلان واقترحت تدويل القدس، وأبدت استعدادها للعيش في ظل دولة فلسطينية، واعترفت بمنظمة التحرير الفلسطينية بوصفها الممثل الشرعي الوحيد للفلسطينيين، وأدانت غزو لبنان عام ١٩٨٢. بل إنها احتجت على اعتراف المنظمة بإسرائيل، وعقد ممثلوها اجتماعاً طارئاً في نيويورك لتدارس الوضع، وعبر المشاركون فيه عن استيائهم من أن ياسر عرفات قد خانهم، وأن اعتداله يبعث على القلق، بل ذهبت هذه الطائفة إلى أبعد من هذا، عندما أرسلت عقب وفاة الإمام الخميني وفداً لتقديم التعازي نيابة عن الطائفة تقديراً لموقفه المناوئ للصهيونية. وبينما كانت تعتبر معظم الأحزاب والحركات الاسرائيلية الكفاح المسلح الفلسطيني إرهاباً، كانت «أنطوري كارتا» ترى

فيه أمراً مشروعاً، وكانت تؤيد حق الفلسطينيين في استرجاع ما أخذ منهم بالقوة.

إن الصهيونية، كما يقول الحاخام موشيه هيرش، سكرتير هذه الطائفة، «تتعارض تعارضاً كاملاً مع اليهودية». فالصهيونية تريد أن تعرّف الشعب اليهودي باعتباره وحدة قومية، وهذه هرطقة. فقد تلقى اليهود الرسالة من الرب لا لكي يفرضوا عودتهم إلى الأرض المقدسة ضد إرادة سكانها، وإن هم فعلوا ذلك فإنهم يتحملون نتائج فعلتهم. والتلمود يقول: «إن هذا الانتهاك سوف يجعل من لحمكم فريسة للسباع في الغابة». وإن المذبحة الكبرى بالتالي ستكون نتيجة حتمية من نتائج الصهيونية. ويعتقد هيرش أن «في وسع اليهود أن يعيشوا ويربوا أبناءهم في ظل الدولة الفلسطينية حسبما يريدون».

وانتقد الحاخام هيرش بشدة الجهات التي تحاول إجبار «الحريديم» على الخدمة العسكرية في الجيش الاسرائيلي. وقال في هذا: «إنهم يريدون انضمامنا إلى آلة الحرب ضد العدو الذي أوجدوه خدمة لمصالحهم، ولتوسيع سيطرتهم على مناطق تابعة لشعوب أخرى. وإن هؤلاء الأشخاص، يعني الفلسطينيين ـ تم الإعلان عنهم كأعداء، لأنهم يشكّلون عقبة أمام المطامع الاقليمية الصهيونية. ونحن اليهود الفلسطينيين عشنا بسلام خلال مئات السنين مع هؤلاء الأعداء للصهيونية، ونحن نطمح إلى استمرار هذه العلاقة، على رغم المعارضة الصهيونية.

ومن الجدير بالذكر أن بن غوريون عندما سئل عن سبب عدم معاقبة الحكومة لأتباع هذه الطائفة التي تتنكر لإسرائيل وقوانينها، أجاب: «إن هنالك صعوبة متزايدة باستمرار تكتنف عملية اتخاذ إجراءات بحق أناس تنبع أفعالهم من إيمان ديني عميق، وليسوا من مخالفي القوانين بالمعنى المألوف. ثم إن هؤلاء يمثلون عالماً انحدر معظمنا منه، وهو عالم أجدادنا وآبائنا الذي عرفناه منذ الطفولة».

ثالثاً: نتائج حرب عام ١٩٦٧ وبروز حركة «الغوش ايمونيم»

أفردنا لحركة «غوش ايمونيم» مكاناً خاصاً لأنها أفضل تعبير عن التطرف السياسي الذي يسِم سائر الحركات الدينية في إسرائيل، وعن التناقض بين هذه الحركات الدينية ومعظم الحركات العلمانية، ولا سيما حزب العمل وأنصار السلام، وعن دور هذه الجماعة المتميز بالتالي في «تمزيق» المجتمع الإسرائيلي. بالإضافة إلى أن هذه الحركة تعكس على نحو واضح وفاضح الأجواء التي طغت على إسرائيل بعد حرب عام ١٩٦٧، وبعد حرب تشرين الأول/اكتوبر ١٩٧٣، والتي استمرت بعد بدء محادثات السلام في مدريد عام ١٩٩١ حتى اليوم. وهي أجواء يأتلف فيها الغرور بالقلق والخوف، وتختلط فيها ادعاءات السلام بأبشع أشكال النزعات العدوانية والتوسعية والعنصرية، ويخوض الاسرائيليون وسطها لجحاً من الأفكار

المتناقضة والمواقف المتنافرة، ويوضَع فيها مصير إسرائيل نفسها، نتيجة لذلك كله، موضع الشك. وهذه الأجواء كلها مع ما تحمله من تفجر وتمزق تستقي تناقضاتها، كما سنرى، من التناقض الأصيل الذي ولد سواه: نعني التناقض في صلب الدعوة الصهيونية.

١ ـ لقد أصبح معروفاً وبدهياً أن معركة حزيران/يونيو ١٩٦٧ التي جرت في الأماكن الأكثر قدسية من سواها في نظر اسرائيل، حملت معنى «مسيحانياً» جديداً، ولم يتردد المفكرون الدينيون والحاخامات في اعتبار انتصار اسرائيل فيها «معجزة الهية». وقد ناقشت كتابات دينية كثيرة هذه القضية واعتبرت أن سحق إسرائيل لعدوها وتحرير حائط المبكي، وجبل المعبد، أعمال من تدبير الله. أما القطاع غير المتدين فقد اعتبر تلك المعركة نصراً عسكرياً عظيماً على أية حال، أنهى القلق وحوّل الخطر إلى انتعاش ورفع الحصار عن الأراضي الرائعة التي كانت تقع خلف الأسلاك الشائكة(١٤).

وقد أطلقت الحرب العنان لجدل وطني دار حول أهداف الصهيونية وأغراضها وعلاقاتها بالديانة اليهودية، وحول «أرض اسرائيل» المزعومة. ومنذ تلك الحرب أصبحت حركة «النادمين الجدد» أو المولودين ثانية، واسعة الانتشار، ورحب جمهور الطبقة الوسطى بالتحول إلى الحياة الدينية المحافظة.

ومع مضي السنين اكتسبت الدعوة إلى «أرض اسرائيل الكبرى» التي تشمل يهودا والسامرا وغزة، دعماً سياسياً أكبر،

داخل إسرائيل وخارجها، ولا سيما لدى يهود الشتات في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا وسائر بلدان العالم.

٢ ـ إن فترة العصمة الذاتية والافتتان بالقوة الوهمية ما لبثت حتى اهتزت بعد حرب رمضان أو حرب «يوم الغفران» (يوم كيبور) في ٣ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٧٣. وزادت هذه الحرب، ومعها ظاهرة قوة نفط العرب التي تلتها، في عزلة إسرائيل ومخاوفها من جديد. ووجدت إسرائيل نفسها مرة أخرى أشبه بجزيرة يهودية صغيرة وسط خضم واسع، وبدأت تشعر، شأنها شأن قدماء اليهود، بأنها تقاتل من أجل البقاء في عالم غريب بعيد، ينكر عليها الحقوق التي تزعمها.

٣ ـ كان من الطبيعي في مثل هذه الأجواء أن تزيد الأقلية الصغيرة العنيدة من المتعصبين الدينيين القوميين من تشديد قبضتها على المجتمع الاسرائيلي، وأن يتكاثر مريدوها يوماً بعد يوم، وأن تشهد الفترة التي أعقبت حرب حزيران/ يونيو عام ١٩٦٧ تحولاً في السلطة، إذ أزاح جناح اليمين في حزب الليكود المركزي حزب العمل، وورث القادة المتدينون الجدد داخل اليمين المكان الذي كان يشغله حزب جابوتنسكي التصحيحي، كما سبق أن رأينا.

وكانت نتيجة هذا كله أن حزب «غوش ايمونيم» الذي كان يقود هذه الموجة من القوميين الجدد، فرض إرادته على الحكومات المترددة المتلاحقة. ولا يتسع المجال للحديث عن مواقف هذا الحزب المتطرفة، بل الشوفينية العنصرية.

وما يعنينا أن نبرز بوجه خاص الحيرة والارتباك اللذين سادا الحياة السياسية في إسرائيل في مواجهة الأحزاب الدينية، وعلى رأسها «غوش ايمونيم»، والمواقف المتناقضة التي وقع فيها حزب العمل بوجه خاص، نتيجة لذلك. ونقدم في ما يلي عرضاً خاطفاً لبعض الأحداث التي تظهر في آن واحد تطرف هذا الحزب وفاشيته واضطراب اليسار الاسرائيلي وحيرته[١٥]:

أ ـ بتاريخ ٤/٤/١٩٦٨، عشية عيد الفصح، وصلت مجموعة تتألف من ستين يهودياً إسرائيلياً إلى مدينة الخليل. وذهبت العائلات العشر مع أولادها إلى فندق عربي صغير، كانت قد استأجرته للإقامة فيه خلال أيام العطل. وكانت هذه الزيارة السلمية في ظاهرها بداية لقيام حركة دينية جديدة كان مقدراً لها أن تغيّر مجرى الأحداث في إسرائيل. فبعد هرج ومرج واحتفال كبير في الفندق، أعلن الزوار أنهم لن يسمحوا لأحد بأن يجليهم عن مدينة الآباء. وعندما رفضوا مغادرة الخليل والانصياع للأوامر العسكرية، أمر خمسة منهم بمغادرة الخليل، وأدى هذا إلى حدوث عاصفة سياسية لم تستطع حكومة ليفي أشكول التغلب عليها. واضطر وزير الدفاع موشي دايان تحت الضغط إلى الغاء الأمر المذكور. وبدأت لعبة القط والفأر بين المتعصبين الدينيين وبين حكومة حزب العمل، وازدادت خطراً يوماً بعد يوم. وقام صراع بينهم وبين العرب ما يزال ممتداً ومشتداً حتى اليوم، ولا سيما حين أصر المستوطنون على حقهم في الصلاة في مسجد ابراهيم الخليل

وفق طقوسهم الدينية دون مراعاة لأوقات الصلاة عند المسلمين. وفي إثر انفجار قنبلة يدوية عند الدرجات المؤدية للجامع، وسقوط عدد من الضحايا، قرر مجلس الوزراء إقامة مدينة يهودية تطل على الخليل، هي مدينة «كريات - أربع» الشهيرة (الاسم التوأم التوراتي لمدينة الخليل)، وقد أصبحت تضم اليوم ما يزيد على ثلاثة آلاف ساكن.

وأدت الثقة التي اكتسبتها هذه الحركة الدينية الجديدة إلى ولادة حركة «غوش ايمونيم»، وإلى ظهورها إلى الوجود رسمياً عام ١٩٧٤، بعد حرب رمضان بوقت قصير. ويرجع الكثير من قادة حركة «غوش ايمونيم» إلى «البيشفا» (Yeshiva) (المدرسة الدينية) التي كان يرأسها الحاخام زفي يهودا كوك ابن الحاخام الشهير راف كوك الذي سبق أن تحدثنا طويلاً عن أفكاره.

ب - لقد أخذت هذه الحركة اتجاهاً جديداً متحدياً للصهيونية الهرتزلية، وأصبحت عقيدتها تتلخص في أن «أرض إسرائيل هي لشعب إسرائيل طبقاً لتوراة اسرائيل»، وأن دولة اسرائيل بالتالي تجسيد للعهد بين الله وشعبه.

ومن أجل هذا دعا أتباعها إلى الاقتداء بالرواد الأوائل وبعقيدتهم التي تقضي بترك المدن وهجر أماكن السكنى الحضارية والإقامة في الأراضي الجرداء.

وبعد انتصارهم في معركة الخليل، بدأ الكثير من

الاسرائيليين غير المحافظين، ومن بينهم العديد من الشخصيات الأدبية السياسية المرموقة، يرون في أتباع حركة «غوش» المنفذين الحقيقيين للإرادة القومية، وأنهم سد منيع يمكن الركون إليه في وجه الضغوط الخارجية. وبلغ انتشار هذه الحركة حداً أدى إلى تشكيل دائرة داخل حزب العمل نفسه تعهدت بالولاء لها، على الرغم من أن هذه الحركة تحدت حكومة رابين علناً حين أقامت عام ١٩٧٣ مستوطنة «سبسطية» (قرب نابلس) وهددت بالصدام مع الجيش إن هو حاول ردها عن ذلك.

ج ـ الحق إن جماعة حركة «غوش» كانت تستطيع أن تفرض إرادتها على الحكومات العمالية، لأن الحكومات العمالية كانت منقسمة على نفسها في ما يتصل بموقفها منها، أو كانت تلجأ في هذا الشأن ـ كما في سواه ـ إلى المراوغة والتلفيق الذي رافق نشأة الصهيونية وموقفها من الدين اليهودي. وقد كان العديد من أتباع حركة «غوش» المتسترين يشغلون مناصب مهمة في حكومة حزب العمل. وعندما فقد حزب العمل أكثريته العددية خلال الفترة الحرجة بين عام ١٩٧٤ وعام ١٩٧٧، كان هنالك ثلاثة قادة عماليين يتنافسون على الزعامة، وهم: رئيس الوزراء رابين، ووزير الدفاع شمعون بيريس، ووزير الخارجية ييغال آلون. وكان لكل واحد من هؤلاء داخل وزارته مؤيدوه وبطانته الخاصة من حركة «غوش»؛ فقد كان آرييل شارون مستشاراً خاصاً عند رابين، وكان إلى جانب

بيريس وزير الدفاع يوفال نيثمان الذي أصبح زعيم المتطرفين في حزب النهضة الموالي لحركة «غوش»، والذي كان يدير عمليات حركة «غوش» من وزارة الدفاع علناً. أما آلون فكان نصير الحاخام موشه ليفنغر الذي ترأس العائلات العشر عند حادثة الخليل، وصاحب مشروع مستوطنة «كريات أربع» الذي سبق أن تحدثنا عنه. وهذا كله يشهد على مدى الانقسام في حزب العمل، وعلى البحران الذي آلت إليه إسرائيل، والشد والجذب بين الفئات والأحزاب المتعارضة، وفي داخل الأحزاب نفسها، الأمر الذي زاد في حدة الصراعات التي أخذت تمزقها من كل حدب وصوب.

د ـ استمرت «غوش ايمونيم» في معركتها الاستيطانية بوجه خاص، بالإضافة إلى معاركها الأخرى، وحاولت أن تقيم عام ١٩٧٩ مستوطنة على قمة تشرف على نابلس، وأقامت مستوطنة «آلون موريه» القريبة من ذلك الموقع. وفي الفترة الثانية لحكومة بيغن التي ابتدأت عام ١٩٨١ ـ وفي ظل حكومة شامير من بعده ـ لم تعد الحركة في حاجة إلى مناورات جديدة، فلقد ربحت المعركة، إذ انطلقت حكومات الليكود في إقامة المستوطنات على نطاق واسع، وبإقامة ضواحي سكنية في الضفة الغربية، ولا سيما بعد العون المالي الكبير الذي تلقته لهذه الغاية من الولايات المتحدة بوجه خاص.

وهكذا أصبحت حركة «غوش ايمونيم»، بعد الدماء التي سفكت والصراعات التي احتدت واشتدت، رأس الحربة،

والمنارة الهادية لليمين الاسرائيلي الجديد.

٤ ـ من الجدير بالذكر أن هذه الحركة، شأنها شأن معظم الحركات الدينية لا تؤمن بالسلام، فالسلام عندها لا يمكن إدراكه إلا بالمعنى «المسيحاني» الديني. واليهود المؤمنون الذين يحملون فكرة السلام كنبوءة ومثل أعلى رفيع، ليسوا على استعداد، في ما ترى، ليحوّلوها إلى مجرد «سلام رحلات إلى الأهرام». إن أتباعها يذهبون في شأن السلام إلى أعجب من هذا، إذ لا بد في نظرهم من إقامة العلاقة بين إسرائيل والعالم على أساس البغض الأبدي بين اليهود وسواهم. ولذلك لا فائدة عندهم من البحث عن أي حل سياسي، لأن قوى الشيطان لن تحافظ على وجود شعب إسرائيل، وقد يكون هذا الشعب في وضع أفضل إذا اعتزل أمم الأرض كلها.

٥ ـ تقف بعض القوى في إسرائيل ضد هذه الحركة، ومن بينها بعض القوى الدينية من مثل «حركة الشجاعة والسلام»، وهي جماعة صغيرة داخل المعسكر الديني. وبعد حرب لبنان وموت الكثير من طلاب «الييشيفا» (Yeshiva) (المدارس الدينية) في المعركة ظهرت حال من العداء ضد حركة «غوش ايمونيم»، وقامت مظاهرات من بعض الفئات الدينية ضد الحرب للرد بوجه خاص على الأصوات المتطرفة التي طالبت بإلحاق جنوب لبنان بإسرائيل.

ولقد دعم سلطة رجال الدين وسلطة جماعة «غوش إيمونيم» تحالف غريب مع الأكثرية العلمانية، على الرغم من

أن تقرّي المجتمع الاسرائيلي يشير إلى التناقض الكبير والحاسم بين هذه الحركات الدينية وأتباعها المتعصبين للمسيحانية، وبين عقلية أتباع مذهب اللذة الذين يمثلون العدد الأكبر من الاسرائيليين العلمانيين. والحق أن فترة ما بعد حرب عام ١٩٦٧ أوجدت نموذجين متناقضين من رد الفعل: **أولهما** يمثل نمو العقائد الدينية الجديدة وشعارها «كريات أربع» كما رأينا. **والثاني** يؤكد على طيبات الحياة التي قامت على الرخاء الذي تلا فترة الحرب، ويمثله شارع «ديزينغوف» (Dizengof) في تل أبيب، المتلألئ تحت أشعة الشمس، وعلى جانبيه المخازن التجارية ومقاهي الرصيف، وفي طوله وعرضه مظاهر الفتنة الرخيصة، وفي داخله أجواء المتع غير المشروعة، ومن مباذله تشتق منتجات الصناعات السينمائية المحلية، ومعظمها من مستوى البغاء الرخيص، والإعلانات الصغيرة في الصحف اليومية تقدم كل اتجاه محتمل، بدءاً بأزواج العشاق المتسكعين والصداقات الخليعة إلى علاقات النزوات الخيالية الغريبة المفضوحة. والأغنيات العبرية التي تنشرها الإذاعة والتلفاز تستخدم كلاماً يغضب اليهود المتدينين، بل إن القوم في اسرائيل يتساهلون في تعاطي الحشيش وغيره من المخدرات التي يتم تداولها على نطاق واسع، كما يتداولون المطبوعات الجنسية جهاراً على أوسع مدى ويتقبلون مناظر الإعلانات الكبيرة العارية[١٦].

ويرى بعضهم أن هذين المثلين يفسران كثيراً من المظاهر

المتناقضة في المجتمع الاسرائيلي. فالأكثرية اليهودية العلمانية تنتمي في معظمها إلى الأصول الغربية والثقافة الغربية. وهي لا تستنكر بالتالي التأثيرات الغربية في إسرائيل المعاصرة، بما في ذلك الإباحية الأخلاقية. ويرافق تقبل الأفكار الأجنبية لدى هذا الفريق من الاسرائيليين تباعد علماني متزايد عن الوصايا الدينية.

وهكذا شهدت السنوات العشر الأخيرة ظاهرتين متناقضتين: **الأولى** ظاهرة دعم الجهود الدينية وتقويتها، وإعادة «التائبين» العلمانيين إلى الحظيرة الدينية من جهة، **والثانية** ظاهرة ازدياد قوة اتجاه الملذات المادية العلمانية من جهة أخرى.

ومن غرائب الأمور ـ وليس في عالم إسرائيل المتناقض ما يستغرب ـ أن هنالك هدنة صامتة بين عالمي «كريات أربع» وشارع «ديزنغوف». والأغرب من هذا أن هذه الهدنة ليست سطحية، بل هي هدنة مبنية أيضاً على المراوغة والمصلحة واللجوء إلى «التأويل» الذي طالما أجاده متدينو اليهود عبر تاريخهم، وإلى مبدأ «الغاية تبرر الواسطة» الذي كان وما يزال شعار الصهيونية، على اختلاف مذاهبها. هكذا نرى جماعة حركة «غوش» وأتباعهم لا يعترضون على الأكثرية العلمانية في ما يتصل باستمتاعها بطيبات الحياة، وذلك لأن مقاصد حركة «غوش» في زعمهم تتجاوز نطاق اهتمامات الاسرائيلي العادي. فهم يريدون أن يتلقوا عوناً مادياً من الدولة، وهم يريدون أراضي لإقامة مستوطناتهم وأموالاً للمستوطنين. ولهذا لا

يتدخلون في أسلوب الحياة اليومية للناس، ولا يهددون المواصلات أو ألعاب كرة القدم يوم السبت كما يفعل سواهم. وما يطلبونه هو الإخلاص لقضية واحدة، هي استيطان أرض إسرائيل. وقد أوجدوا مجتمعاً له مصالح مشتركة بين المعسكرين، وذلك بإقامة وحدات سكنية في ضواحي مدن الضفة الغربية. ولليهود العلمانيين في نظرهم خيار سهل، وهو أنهم يستطيعون خرق القانون، والقيام بكل ما لا يرضاه الرب، على أن يشتروا الغفران عن طريق مساعدة مستوطنات حركة «غوش». ولا شك في أن هذه المصالحة الغريبة بين الاتجاه الديني المتزمت الذي تؤمن به «غوش ايمونيم» وبين السلوك المستهتر والماجن لبعض أتباع التيار العلماني، دليل آخر على مدى الرياء والخداع القائم في المجتمع الاسرائيلي، وعلى مدى تعقد تناقضاته العميقة.

٦ ـ هكذا تفضح حركة «غوش ايمونيم» الدينية المتطرفة، على شكل بارز وواضح، التناقضات الأساسية التي عانتها دولة إسرائيل بعد قيامها، ولا سيما من حيث طبيعة الصلات بين النزعات الدينية والنزعات التي تدّعي أنها علمانية:

أ ـ هنالك مشكلة الأراضي العربية التي احتلتها إسرائيل بعد حرب عام ١٩٦٧، وما ولدته لدى المتدينين جميعهم في إسرائيل من اعتقاد بأن النصر فيها كان معجزة إلهية، وبأن إعادتها كلها أو بعضها مخالفة لإرادة الرب. وبهذا اكتسبت «فكرة أرض اسرائيل الكبرى» قوة جديدة، وعادت إسرائيل،

على حد قول شارل ديغول في ٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٧ دولة «تحمل في داخلها جميع خصائص اليهود التقليدية السلبية». وقد ظهرت أبرز معالم هذا الانقلاب الجذري في الواقع الأيديولوجي داخل دولة إسرائيل في حركة «غوش ايمونيم» بوجه خاص.

ب ـ في مقابل ذلك، أصبحت العقيدة الاشتراكية الصهيونية في موقف المنهزم، واضطرت الأحزاب المنتمية إليها، ولا سيما حزب العمل إلى اللجوء إلى المهادنة والخداع مع تلك الحركات الدينية المتطرفة، على نحو ما بدا واضحاً في أحداث الخليل وما تلاها من عمليات الاستيطان، وعلى نحو ما بدا في مواقف وتصريحات زعماء حزب العمل ومن والاهُم. وكان من نتائج ذلك قيام قومية جديدة مكافحة، تستقي جذورها من التقاليد اليهودية الماضية، بالإضافة إلى طغيان الارتباك والحيرة على الحركات العلمانية، واضطرارها إلى مواقف «ملفقة» لم يقدر لها النجاح.

ج ـ أدى هذا الوضع الجديد إلى وضع الصهيونية نفسها موضع التساؤل مرة أخرى ـ وما أكثر ما وضعت موضع التساؤل قبل نشأتها وبعدها ـ بل إلى وضع «اليهودية» نفسها موضع التساؤل، وإلى قيام «هوة ايديولوجية بين شعب إسرائيل وشعوب الأرض كافة» على حدّ تعبير المفكر الديني جويل فلورشايم (Joel Florsheim). ويلخص هذا المفكر أزمة الصهيونية هذه بقوله: لقد «فشلت الصهيونية بسبب محاولة

تحويل الشعب اليهودي إلى شيء ليس من طبيعته، وفشلت في تحويل أرض إسرائيل إلى شيء من طبيعتها، لأن كل أرض هي للشعب الذي يعيش فيها»[١٧]. وأدى ذلك إلى أن تطرح من جديد أسئلة قديمة حديثة حول الصهيونية واليهودية والعلاقة بينهما، من مثل الأسئلة الآتية: من هو اليهودي؟ من هو اليهودي من وجهة النظر الدينية، ومن هو اليهودي من وجهة النظر العرقية (أي من حيث النسب والدم) ومن هو اليهودي من وجهة النظر القانونية، ومن هو اليهودي من وجهة النظر الواقعية؟ ثم من هو المواطن الاسرائيلي؟ وما هو وضع الذين اعتنقوا الديانة اليهودية حديثاً؟ وما هو مصير اليهودية في عالم الغد؟ «وهل سيكون هنالك شعب يهودي على تخوم القرن الحادي والعشرين»[١٨]، على نحو ما تساءل زعماء يهود من مختلف بلدان العالم التقوا في مدينة «برنستون» عام ١٩٨٦؟ وهل هنالك توافق بين اليهودية بالمعنى الديني للكلمة واليهودية بالمعنى العرقي؟ وهل ثمة ارتباط بين اليهودية وبين أرض فلسطين؟ وما هي العلاقة التي تبرز من جديد في إسرائيل اليوم حادة قوية بين دولة إسرائيل وبين النظام الديني الأخلاقي (الهالاخاه Halakha) الذي يفترض أن الزمن قد تجاوزه؟ أسئلة ضخمة، وسواها كثير طرحها من جديد نمو الحركات الدينية في إسرائيل، وطرحتها على نحو حاد حركة «غوش ايمونيم»، وسوف نعود إليها بعد حين، لأنها جوهر بحثنا.

د ـ لقد ازداد هذا الوضع المتأزم المتناقض خطورة بعد

محادثات السلام، وأخذت الفرقة تنشب أظافرها ويشتد لهيبها داخل المجتمع الاسرائيلي أكثر من أي وقت مضى. ولا أدل على ذلك من مقتل رابين. وقد أصبح الكثيرون يتساءلون، داخل إسرائيل وخارجها، عما إذا كان سيؤدي مقتله إلى حرب مدنية عنيفة. وسنعود إلى ذلك كله لاحقاً.

٧ ـ يهمنا أن ندرك، من وراء هذا كله، كيف تعاظم التناقض في قلب المجتمع الاسرائيلي بعد ولادة دولة إسرائيل، وكيف طرحت هذه الولادة مشكلات عصية على الحل، بسبب التناقض الذاتي العميق القائم في قلب الصهيونية قبل ولادة هذه الدولة وبعدها. وقد أدى هذا كله إلى توالد حركات دينية متباينة كما رأينا: منها أحزاب دينية أرثوذكسية، ومنها أحزاب «مسيحانية» معارضة للصهيونية ومكفرة للدولة، ومنها أحزاب دينية مسيحانية سفاردية، ومنها قوى دينية «حسيدية» معارضة للصهيونية، ومنها حركات «حريدية» مغالية في التشدد الديني وتكفير الدولة، ومنها، أخيراً وليس آخراً حركة «غوش ايمونيم».

ولقد قامت صراعات بين هذه الحركات الدينية، وصراعات أخرى داخل كل منها حيث انقسمت فرائق وأجنحة. وأيدت بعض هذه الحركات الفكرة الصهيونية وقيام دولة إسرائيل، وعاداها بعضها الآخر. وعارض معظم هذه الحركات الاتجاهات العلمانية، من دون أن يعني ذلك دوماً معارضته حزب العمل ومن يدور في فلكه. كما أيد بعض

اتجاهات اليمين الصهيوني المتطرف وعلى رأسه حزب «الليكود»، بينما عارض بعضها الآخر أفكار اليمين السياسي ذاتها. وغدت إسرائيل، وسط هذا المخاض المضطرب، موطناً للحيرة والقلق. ولم تُجْد محاولات «التلفيق» المصطنعة في إعادة اللحمة إلى أجزاء هذا الكيان المتناثر.

والسؤال بعد هذا كله: إلى أين مصير إسرائيل؟ وهل تفلح في إنقاذ كيانها ولمّ شظايا هذا الوجود المبعثر؟ أم أن ما تشكوه من تمزق معنوي في بنيانها، أعمق من أي علاج مؤقت وجزئي، ولا يجدي فيه أي رتق مصطنع، ما دام ينبع من تناقض أصيل مقيم منذ القدم في تطور الوجود اليهودي عبر التاريخ، على نحو ما رأينا، ومن ولادة مقتسرة لحركة صهيونية ناقضت في منطلقاتها حاجات الواقع اليهودي في العالم وزادت في مشكلاته، وضلّت السبيل المؤدية إلى إنقاذ الوجود اليهودي، حين آثرت إيقاعه في شتات جديد، أخطر وأدهى، بدلاً من دمجه في المجتمعات التي كاد يندمج فيها فعلاً، والتي ما تزال الكثرة الكاثرة من أبناء الشعب اليهودي مندمجة فيها حتى اليوم؟ وأخيراً وليس آخراً، ماذا تستطيع محاولات إسرائيل (والدول الأجنبية التي تود إنقاذها) لإقامة سلام مع العرب أن تقدم لمثل هذا الواقع المريض من حلول لمعضلاتها العصيّة على الحل؟ هذا ما سنجيب عنه في الفصل الآتي.

الفصل الرابع

إسرائيل الممزقة والمستقبل

أولاً: مدخل: إسرائيل والنظام العالمي

١ ـ على أبواب العهد العالمي الجديد الذي ظهر بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، خُيل إلى أكثر ساسة العالم ومفكريه أن السلام العالمي المنشود ـ ومن ورائه الحضارة العالمية الجديرة حقاً بالإنسان ـ يتم من خلال إحكام القبضة على الشعوب وفرض إرادة الأقوياء على الضعفاء.

يصدق هذا على العالم في كل مكان، ويصدق بوجه خاص على الصراع العربي ـ الاسرائيلي. فالذين يتصدّون لهذه المشكلة على مستوى الدول الكبرى ـ ولا سيما الولايات المتحدة ـ يظنون أن سبيل السلام العربي ـ الاسرائيلي هي سبيل فرض إرادة المجتمع الدولي وإرادة الدول القوية على العرب، ولنقل تجوزاً: وعلى إسرائيل أيضاً. وهم بذلك يتناسون أن علاج المشكلات المعنوية لا يمكن أن يتم عن طريق إرادة القوة، كما هو الشأن في حلّ المشكلات المادية. ومن المفارقات

التي يقعون فيها أن هذه الحقيقة ـ نعني تعذر حلّ المشكلات المعنوية عن طريق القوة ـ لا تنطبق هذه المرة على العرب وحدهم كما قد يخيّل إليهم، بل تنطبق بوجه خاص على إسرائيل.

والأطروحة التي نود أن نؤكدها هي أن قدرة إسرائيل على إقامة سلام حقيقي مع العرب معطّلة تعطيلاً شبه كامل بالتناقضات التي تحطم كيانها وتهدد وجودها منذ القدم، والتي تحدثنا عنها عبر هذه الدراسة، وهي تناقضات تتجلى نتائجها الخطيرة أكثر فأكثر كلما تقدم الزمن. ومن العسير، في نظرنا، على مثل هذا الكيان، الذي تقعده الصراعات المرضية المتجاذبة عن أي عمل صحي وعن أي جهد صادق، أن يحقق سلاماً فعلياً مع العرب قابلاً للبقاء والاستمرار، مهما تكن القوة المادية التي تحميه كبيرة أو جبارة، داخل إسرائيل وخارجها. ولقد قلنا منذ بداية بحثنا أن القوة المادية، عسكرية كانت أو اقتصادية أو كلتيهما، معرضة للتساقط، كما تساقط الاتحاد السوفياتي نفسه، إذا لم تؤيدها قوة معنوية، قوامها الأساسي القيم القادرة على تعبئة النفوس من أجل إرادة العمل المشترك.

٢ ـ هذه القيم المشتركة هي التي تعوز الكيان الاسرائيلي، وهي التي أعوزته دوماً، مهما يكابر المكابرون ومهما يتخفف المتخفون وراء تزييف الحقائق، ذلك أن تاريخ اليهودية وتاريخ الصهيونية، كما رأينا، حمل معه على مر القرون من المعتقدات المتناقضة، ومن الأفكار المزيفة، ومن تشويه الواقع ما يحول

دون تكوّن أي وجود يهودي قابل للبقاء. وواقع دولة إسرائيل، بعد ولادتها، حمل معه من أعباء ذلك التاريخ ما حمل، وحمل فوق ذلك ما اصطنعته الصهيونية من تحليل مزيف للواقع اليهودي وحاجاته، كان في أفضل الأحوال رد فعل خاطئاً على النزعات المعادية للسامية وعلى اضطهاد اليهود، دون ما تساؤل عن مسؤولية اليهود أنفسهم ومسؤولية الصهيونية نفسها عن نمو تلك النزعات الكارهة لليهود، ودون ما تساؤل عن مدى سلامة مداواة الداء بالداء، أي مداواة شعور بعض اليهود بالغربة في ديار الشتات بدعوتهم إلى غربة أدهى وأمر، تضيف إلى تبعثرهم السابق في دول العالم شتاتاً جديداً لهم وسط وجود عربي يُكره على احتوائهم بالقوة.

بالإضافة إلى ذلك كله، حملت النزعات الصهيونية الدينية نفسها تناقضاً فاضحاً حين أكدت في دعوتها الدينية على الجانب المتصل بأرض الميعاد، في معزل عن سواه. وهذا ما يعبّر عنه يعقوب بتشوفسكي (Jacob J. Petchowvski) الأستاذ في الجامعة العبرية في مقاطعة أوهايو، حين يأخذ على اليهودية الأرثوذكسية المسيسة استخدامها الكتب المقدسة استخداماً انتقائياً، يأخذ ببعض الكتاب ويدع بعضه الآخر. ويقول في هذا: «عندما يؤكد المدافعون عن إسرائيل أهمية الأرض في الديانة التوراتية، ينبغي أن نسألهم بادئ ذي بدء عما إذا كانوا يريدون حقاً إرجاع اليهودية إلى عهدها التوراتي، أي عما إذا كانوا يريدون أن تلجأ اليهودية اليوم إلى تقديم الحيوانات قرابين

لله، وإلى قبول الرق، وإلى تطبيق أحكام الإعدام على من يخالف بعض الطقوس الدينية، وإلى إقامة دولة ثيوقراطية، أم أنهم يريدون فقط أن يؤكدوا دور «الأرض» في معزل عن سياقه»؟[١٩].

وهكذا فإن هذا التناقض البديء والمستمر في تاريخ اليهودية وفي تاريخ الحركة الصهيونية بوجه خاص، لم تُجْد في إخفائه وتعميته الجهودُ الدائبة منذ ولادة إسرائيل حتى اليوم، وأخذ يتكشف للعيان ويزداد حدة وشدة مع الأيام، وغدا في أرض إسرائيل أشبه بقنبلة موقوتة معرضة للإنفجار في الوقت المناسب.

ثانياً: تمزق الهوية الاسرائيلية

ونود الآن أن نلخص التناقضات المعنوية القائمة في إسرائيل اليوم والمحملة بطاقات الانفجار، وهي تناقضات تتصل بالهوية اليهودية وهوية دولة إسرائيل، عرفها التاريخ اليهودي ماضياً وحاضراً كما رأينا، وتجلّت في مسيرة اليهودية عبر التاريخ، وفي مسيرة الصهيونية، وتسللت إلى الحياة الاسرائيلية حتى اليوم. وفي وسعنا أن نوجز هذه التناقضات المتصلة بهوية إسرائيل في التناقضات المهمة الآتية:

١ ـ أول تناقض وأخطر تناقض يتصل بتعريف اليهودي. فالسؤال التليد الجديد كان وما يزال: من هو اليهودي؟ والجواب عن ذلك يختلف ويتباين بتباين المذاهب اليهودية

الدينية والفكرية والسياسية قديماً وحديثاً:

فهنالك **المدلول العرقي** (الإثني) لهذا الوصف، وهو أن اليهودي هو كل طفل ولد من أم يهودية - أو من أب يهودي تبعاً لبعض التأويلات التي تأخذ بها النزعة اليهودية الاصلاحية - ومعنى ذلك أن أي إنسان ينتسب إلى المجتمع اليهودي ويرتبط بمصيره، هو يهودي بحكم ولادته من أصول يهودية، سواء كان مؤمناً أو غير مؤمن، وسواء ارتبط بمؤسسة دينية يهودية أو لم يرتبط، وسواء صدّق على هذا الانتساب وأكّده أو لم يصدّق عليه.

وهنالك، إلى جانب هذا المدلول العرقي، **المدلول الديني** (نعني الانتساب إلى الديانة اليهودية)، وقوامه أن اليهودي هو أي إنسان يؤمن بالإله الواحد، إله ابراهيم واسحق ويعقوب، ويؤمن أن الله قد اختار الشعب اليهودي ووعده بالعودة إلى أرض الميعاد. وبهذا المعنى يكون اليهودي أي إنسان ينتمي إلى جماعة العقيدة اليهودية، سواء تمّ ذلك عن طريق انتمائه إلى مؤسسة دينية (كنيس ديني) أو لا، وسواء كان أرثوذكسياً محافظاً أو كان ذا اتجاه إصلاحي، وسواء كان انتماؤه بحكم الولادة أو بحكم اعتناقه الديانة اليهودية.

وواضح أن المدلول العرقي والمدلول الديني لكلمة «يهودي» لا يتطابقان. وفي ما مضى كان يكفي أن يكون الإنسان يهودياً بالدم (بالمعنى العرقي) كي يكون في الوقت نفسه يهودياً بالمعنى الديني. أما في العصور الحديثة، وبعد

ولادة الصهيونية ودولة إسرائيل، فالأمر يختلف باختلاف الحركات والأحزاب الدينية وسواها.

٢ ـ يرتبط بهذا التساؤل عن المقصود باليهودي تساؤل عملي مهم، نعني التساؤل عن معنى المواطنة الاسرائيلية وعن معنى المواطن الاسرائيلي. فإذا نظرنا إلى «قانون العودة» الذي وضع مباشرة بعد خلق دولة إسرائيل، وجدنا أن المواطنة الاسرائيلية ينبغي أن تمنح على نحو آلي لليهود جميعاً. وعند ذلك يَرِد التساؤل: ما هو الموقف بالنسبة إلى الذين اعتنقوا الديانة اليهودية حديثاً، والذين لم يختاروا الديانة اليهودية الأرثوذكسية التقليدية واختاروا اليهودية المحافظة الاصلاحية؟ هل هم حقاً يهود تبعاً للقانون؟ لقد أجاب عن هذا السؤال بالنفي القاطع وزير الداخلية الاسرائيلي عام ١٩٨٧، وكان من الأرثوذكسيين المتطرفين، وطلب من الذين يريدون أن يعتنقوا اليهودية أن يفعلوا ذلك وفق تعاليم «الهالاخاه».

٣ ـ إن الربط بوجه عام بين المواطنة الاسرائيلية وبين اعتناق الديانة اليهودية طرح معضلة أخرى، وهي المعضلة الخاصة بالمقيمين في إسرائيل من أبناء الديانات الأخرى من العرب وسواهم. وبحسب القوانين الدستورية الدولية، لا تكوّن إسرائيل كياناً دينياً، بل كياناً سياسياً. وعند إقامة دولة إسرائيل، كانت هذه الدولة تضم منذ أيامها الأولى ـ وبعد طرد الكثرة الكاثرة من العرب منها ـ مواطنين عرباً ينتمون إلى ديانات مختلفة. وفي عام ١٩٨٩ ـ وبصرف النظر عن سكان

الأراضي المحتلة ـ كان العرب المسلمون يمثلون ١٥ بالمئة من عدد السكان الإجمالي، وكان العرب المسيحيون يناهزون ما معدله ٢ بالمئة من السكان.

وفوق هذا وذاك، لا تضم اسرائيل يهود العالم جميعهم، وليس جميع اليهود بالتالي مواطنين في دولة إسرائيل، بينما تتجاوز اليهودية على نحو واسع حدود دولة إسرائيل، وكثيراً ما لا ترتبط بها. ومعنى هذا بوجيز القول إن دولة إسرائيل لا تختلط باليهودية ولا يمكن ردها إليها، على الرغم من أنها تقيم علاقة متبادلة معها، الأمر الذي يقود إلى موقف تلفيقي خطير، كثيراً ما أوى إليه الصهاينة، قوامه الجمع بين ضدين لا يجتمعان. وذلك بالقول بأن دولة إسرائيل اليوم كيان سياسي، ولكن تقاليدها القديمة تمنحها أيضاً بعداً دينياً، من دون أن تبين مدى حدوده وسلطانه، ومن دون أن تستخرج منه كامل مدلولاته. وهذا القول، فوق ما يشتمل عليه من تناقض وتخليط، لا تتفق حوله الحركات والأحزاب الدينية، وتراه مقصراً عن الطابع الديني الكامل لدولة إسرائيل، ومناقضاً لمبررات وجودها ومقومات بقائها، كما لا تقبل به الحركات العلمانية التي ترى فيه ردة إلى خلف، وتهديداً للكيان الحديث المرجو لدولة إسرائيل، بينما يقبل به بعض الاتجاهات الصهيونية العلمانية الملفقة. وهنا نقع على جانب من مقومات فتيل القنبلة الموقوتة.

٤ ـ تلحق بهذه المشكلة الخاصة بالمواطنة الاسرائيلية،

مشكلة أخرى، هي موقف دولة إسرائيل من غير اليهود بوجه عام (الأغيار، أو «الغويم Goyim»). وقد أشرنا من قبل إلى التباين الفاضح في صلب الديانة اليهودية، بين القوانين التي تطبق على اليهود والقوانين التي تطبق على سواهم. ونرى صورة مفصلة لهذا التباين في القانون التلمودي على نحو ما كتبه موسى بن ميمون في «ميشناه توراه» (Michna Torah) في القرن الثاني عشر الميلادي. ومن الأمثلة على هذا التباين الصارخ أن قتل اليهودي جريمة كبرى عقوبتها الإعدام، بينما يختلف الأمر عندما تكون الضحية إنساناً غير يهودي. وإذا كانت القوانين الجزائية في دولة إسرائيل اليوم لا تميز في ظاهر الأمر بين اليهودي وغير اليهودي، فإن الحاخاميين الأرثوذكس يدعون جمهورهم إلى اتباع قوانين «الهالاخاه»، ويُسْدون نصائح بصورة خاصة للجنود المتدينين بهذا الصدد. وقد توصل العديد من الشراح الدينيين إلى أنه في حال الحرب يمكن، أو يجب، قتل جميع المنتسبين إلى شعب معاد. ومنذ عام ١٩٧٣، أذيعت هذه العقيدة على نطاق واسع لإرشاد الجنود الاسرائيليين المتدينين. وقد نشر هذا التحريض رسمياً لأول مرة في كتيّب صادر عن قيادة المنطقة الوسطى في الجيش الاسرائيلي، التي تشمل ولايتها الضفة الغربية. ويكتب الكاهن الأول في هذا الكتيب: «عندما تلتقي قواتنا بمدنيين خلال الحرب أو خلال ملاحقة ساخنة أو غزو. . . فوفق أحكام «الهالاخاه» يمكن بل يجب قتلهم. والثقة بعربي غير جائزة في أي ظرف»[٢٠].

وفي قوانين «الهالاخاه» أيضاً، وهي المتبعة حتى اليوم في الأوساط الدينية، يجب على الطبيب اليهودي أن يرفض أن يعالج مريضاً غير يهودي.

وقد أعيدت الآن في كتب صلوات عديدة مطبوعة في إسرائيل لعنة خاصة موجهة أصلاً ضد المسيحيين واليهود المرتدين إلى المسيحية وغيرهم من المنشقين اليهود. وبعد عام ١٩٦٧، أعادت مجموعة قريبة من حركة «غوش ايمونيم» الصيغة الأولى لتلك الصلوات (شفوياً لا طباعة حتى الآن) وهي تصلي يومياً داعية إلى فناء المسيحيين فوراً.

ولا حاجة بنا إلى أن نتوقف مفصلاً عند القواعد الدينية اليهودية التي تميز بين اليهود والأغيار، كمنع الصداقة بين اليهود وغيرهم، وعدم شرب اليهودي نبيذاً ساهم غير يهودي في إعداده بأية طريقة كانت، وسوى ذلك كثير، بل مضحك.

وقد استشهد قادة «غوش ايمونيم» بالمفاهيم الدينية التي تأمر اليهود بقمع غير اليهود، واتخذوها مبرراً لاغتيال رؤساء البلديات الفلسطينيين، واعتبروها مرجعاً مقدساً لخطتهم الهادفة إلى طرد العرب جميعاً من فلسطين.

ولا شك في أن ثمة حركات صهيونية ترفض مثل هذه المواقف، ولكن رفضها يقوم على أساس المصالح والمنافع اليهودية، لا على أساس المبادئ والأخلاق الإنسانية المعترف بها عالمياً.

٥ ـ إن التمييز لا يقتصر على التباين في المعاملة والنظر بين اليهودي وغير اليهودي، بل يمتد ليشمل التفريق بين المواطنين اليهود أنفسهم داخل إسرائيل، وجعل المواطنة بالتالي درجات ومراتب:

فهنالك، كما نعلم، التفريق بين اليهودي «الاشكنازي» (الغربي) واليهودي «السوفاردي» (الشرقي)، والنظرة إلى الثاني نظرة دنيا، على الرغم من أن اليهود السوفارديين يكوّنون ثلثي سكان إسرائيل. وهنالك التفريق بين اليهود السود، ولا سيما يهود «الفالاشا» وسواهم، بلغ كما نعلم حد الحجر على الدماء التي يتبرعون بها، خوفاً من «مرض الإيدز»، وكأنهم بسواد بشرتهم أجساد أكثر نقلاً للأمراض. وهنالك فروق داخل اليهود «الاشكنازيين» تبعاً للانتماءات المختلفة إلى البلدان التي رحلوا منها، وعلى رأس هذه الفروق تلك التي تصيب المهاجرين الروس حديثاً على الرغم من أن جلهم من الفنّيين والمهندسين والأطباء. وهنالك الفوارق بين اليهود الذين أقاموا في فلسطين قبل ولادة إسرائيل (السابرا) والذين أقاموا فيها بعد ذلك. وهنالك وهنالك... وكأننا في خاتمة المطاف أمام خليط متنافر من الانتماءات العاجزة عن تكوين مواطنية إسرائيلية مؤتلفة.

٦ ـ قد يقول بعضهم إن القاسم المشترك بين هذه الأنماط من الانتماءات المتعارضة هو الإخلاص لدولة إسرائيل والحرص على بقائها. غير أننا نجد ههنا أيضاً تناقضات أدهى

وأمر، حول هذا الموضوع، سبق أن أشرنا إليها عند حديثنا عن المذاهب الدينية والسياسية المتصارعة في إسرائيل. وحسبنا أن نعود فنذكّر بأن ثمة خلافات قديمة حديثة حول الصهيونية، وحول دولة إسرائيل، وحول أرض اسرائيل، تصل إلى حد «الفصام» الكامل، فضلاً عن الخلافات الجذرية حول إعادة الأراضي المحتلة، وحول ترحيل الفلسطينيين عن إسرائيل أو بقائهم فيها، وحول طبيعة السلام ومداه، وغير ذلك كثير. ويرجع هذا كله إلى بذور الصهيونية الأولى وما حملته من تناقض وتنافر، ومن رغبة في قسر الواقع وتحميله غير طباعه وفوق ما يحتمل، بل ضد ما يومئ إليه. كما يرجع إلى الرواسب التي حملتها الديانة اليهودية عبر تاريخها الطويل، وما فيها من تناقض وتخلف وبعد عن روح العصر.

٧ ـ يزيد من حدة هذه التناقضات جميعها، التناقض الأكبر الذي تريثنا عنده أكثر من مرة، نعني التناقض بين التيارات الدينية والتيارات العلمانية، ولا سيما بعدما تم في السنوات الأخيرة من نمو متواز لكلا التيارين، ومن تعاظم التناقض بينهما بوجه خاص بعد «الأمركة» السريعة التي بدأت تسري في المجتمع الاسرائيلي. فلقد أدى النمو الاقتصادي في إسرائيل الذي بلغ حوالى ٧ بالمئة في السنة، وانعدام البطالة تقريباً في المجتمع الاسرائيلي بالإضافة إلى عوامل الغزو الثقافي ونتائج التبعية السياسية للغرب، إلى تغيير كثير من أنماط السلوك في إسرائيل، ولا سيما لدى الشباب. وكاد الاهتمام

بمصير إسرائيل يتحطم ويتلاشى على أبواب مطاعم «ماكدونالد» وغزو الاتجاهات العلمانية، والخدمة العسكرية في الخليل. وأصبح العديد من الاسرائيليين الجدد يعتبرون أنفسهم أفراداً قبل أن يكونوا مواطنين، وغدوا يتوقون اليوم إلى أن يحيوا حياتهم الخاصة، بمتعها وأحلامها، ويرفضون الايديولوجيات والعقائد، وقد يدعون إلى سلام لا يدركون - في إطار فهمهم إياه - التغير العميق الذي ينبغي أن يتحقق في منطلقات دولة إسرائيل من أجل تحقيقه. ويعنيهم أكثر من هذا أن يعشقوا مثلاً راقصة «الروك» أفيف غيفن (Aviv Gefen)، وألا يعتبروا الكتب المدرسية كتباً مقدسة. ولعل في وسعنا أن نقول إن الإسرائيليين الجدد اليوم لا يربطهم بالصهيونية إلا سبب بسيط، وهو أنهم ولدوا في إسرائيل.

٨ - يؤيد ما قلناه من التناقض الداخلي في صلب الصهيونية، وفي صلب الديانة اليهودية وفي صلب الوجود الاسرائيلي، كما يلخص الموقف الحالي في إسرائيل في الوقت نفسه، بسبب هذا التناقض، أحد كبار المفكرين في إسرائيل بل فيلسوفها، وأستاذ الكيمياء في الجامعة، نعني ييشاياهو ليبوفيتش (Yeshayahu Leibowitz) الذي توفي عام ١٩٩٤، (وهو ذو نزعة دينية بارزة، فضلاً عن نزعته الصهيونية) فيقول: «إن مستقبل الشعب اليهودي لا يبدو لي واضحاً حقاً، سواء في إسرائيل أو في الشتات. ولعله لن يكون ثمة حل للمشكلة الداخلية التي بدأت في القرن التاسع عشر»[٢١]،

ذلك أن المشكلة الأساسية عنده تكمن في التساؤل الآتي: «هل الشعب اليهودي ما يزال موجوداً من وجهة نظر «الهالاخاه» (القانون اليهودي)؟ إن جماعة «انطوري كارتا» (وهم زمرة صغيرة يهودية متطرفة سبق أن أشرنا إليها)، يقولون بأنهم وحدهم يمثلون اليهود. وإذا نحن قلنا في مقابل ذلك، إن المفكرين «الأحرار»، أي الذين لا يتقيدون بمبادئ القانون الديني اليهودي هم يهود، كانت لذلك القول انعكاسات واسعة النطاق على «الهالاخاه». وهذا يشهد على عجز النزعة اليهودية الدينية التي تتجاهل واقعاً أساسياً: وهو أن هذا الشعب ـ الذي تريد أن تضع له القوانين والأوامر الدينية ـ ليس الشعب اليهودي الذي تتحدث عنه «الهالاخاه»[٢٢].

ويمضي ليبوفيتش بأفكاره إلى نهايتها، على الرغم من أنه صهيوني ملتزم، فيقول إنه يطمح إلى إسرائيل أخرى، إسرائيل مسالمة ومحترمة من الجميع. ويبين، في ما يبين: «أن حرب الأيام الستة كانت وبالاً على إسرائيل وكارثة تاريخية»[٢٣]. ويضيف قائلاً: «من الواضح أن إسرائيل، منذ عام ١٩٦٧، جعلت نفسها في خدمة احتلال يتم بالقوة»، بل إن أمنون روبنشتاين (Amnon Rubinstein) وزير المعارف والثقافة الاسرائيلي حالياً، قد قال مثل هذا القول حينما تحدث عن الهلاك المحتوم لإسرائيل الذي أفرزته حرب الأيام الستة، تلك الحرب التي ترى في إسرائيل وريث «اليهود المضطهدين دوماً»، بدلاً من أن ترى فيها «دولة حديثة قوية ومسؤولة».

ويصف الحاخام الأرثوذكسي داود هارتمان (David Hartman) هذه التوترات القائمة في ما بين اليهود في إسرائيل، ويتساءل في خوف وقلق قائلاً: «إن أخطر تساؤل في إسرائيل اليوم هو التساؤل عما إذا كانت الخلافات المزمنة ستقود إلى حرب أهلية. فالاستقطاب بين اليهود الدينيين واليهود العلمانيين مستمر. والمشكلات الكبرى المطروحة في الصحف ليست في معظم الأحوال تلك المتصلة بأمن اسرائيل، بل تلك المتصلة بمعرفة فيما إذا كانت «الباصات» تعمل في مدينة حيفا يوم السبت، وفيما إذا كانت قاعة السينما في بلد ما سوف تعرض فيلماً مساء الجمعة. وحاخام المدينة الأكبر (وقد أدخل السجن لأنه قاد مظاهرة عنيفة وغير مصرح بها ضد فتح السينما أبوابها) يدّعي أنه فوق قانون الدولة، لأنه يتكلم باسم الله»(٢٤).

وهكذا يبرز السؤال التالي (الأزلي الأبدي) ويشتد: إلى أي يهودية سوف ينتسب المستقبل؟ ولقد عبّر عن حيرة الاسرائيليين أمام هذا السؤال نوع جديد من الأدب القلق أخذ يظهر منذ الثمانينيات، ومن تجلياته الكثيرة مسرحيات تنتقد المجتمع، كتبتها أقلام إسرائيليين لا يريدون أن يتهموا بأنهم نقاد ومخربون، بل يريدون أن يحذّروا قومهم ويجنبوهم مسالك الزلل والضلال. هذا ما نجده مثلاً في المسرحية الغنائية التي تنتقد الأرثوذكسية الدينية، وهي مسرحية «آخر يهودي علماني» التي تم عرضها عام ١٩٨٧، وفيها يتهكم الممثلون على المسرح

من دولة إسرائيلية آتية تصف نفسها بأنها نظام «ثيوقراطي» يهودي. وما لبثت هذه المسرحية حتى أثارت هجمات سلطات الرقابة.

وإن كان مثل هذا الأدب يعني شيئاً، فهو يعني أنه قد غدا من العسير اجتناب السؤال التالي: هل مستقبل اسرائيل هو الهروب من العصر الحديث إلى القرون الوسطى الدينية الأرثوذكسية؟ إن ثمة يهوداً كثيرين يخافون ويألمون لـ «مأساة الصهيونية»، على نحو ما وصفها الكاتب الكندي برنار أفيشاي (Bernard Avishai) الذي عاش طويلاً في إسرائيل، والذي يعود إليها بين الحين والآخر.

٩ ـ لقد اشتد هذا الصراع وتعاظم بعد مقتل رابين، بل كان مقتل رابين نتيجة من نتائجه. وقد سبق لنا أن تحدثنا، في مقال نشرته جريدة الحياة، عن العلاقة بين مقتل رابين هذا وبين البحث اليائس عن هوية إسرائيل. وحسبنا أن نقول: إن مقتل رابين هذا طرح من جديد على نحو لا يحتمل المراوغة والهرب مسألة «هوية إسرائيل» ومستقبلها، وعبّر عن وجود كيانين إسرائيليين، على الأقل، لا كيان واحد، ووضع هذين الكيانين وجهاً لوجه. فهنالك إسرائيل الرؤية المسيحانية، وعندها أن الأرض ليست وسيلة، بل غاية في ذاتها وقيمة عليا. وأن يهودا والسامرا وغزة لم يستول عليها السلاح بقيادة رابين نفسه إذ ذاك، بل كان السلاح مجرد أداة لتحقيق إرادة الله. ولهذا فلا يملك أي زعيم، ولو كان الظافر نفسه، الحق

المعنوي والسياسي في إعادة هذه الأراضي المقدسة.

وفي مواجهة هذا «الكيان الاسرائيلي الديني وضده يقف التيار العلماني، ولا سيما التيار المتأمرك» الذي وصفنا بعض سماته. وقد كان هذان الكيانان المتصارعان قائمين منذ عقود عديدة، غير أن طبيعة الصراع، بعد مقتل «رابين»، قد تغيرت. لقد ظهر متحمسون جدد مستعدون للموت، وأعلنوا الحرب على الدولة العبرية الخائنة. وهذا الضرب من حرب الانفصال، وما يرافقها من تشجيع اليهود على العصيان المدني، وعلى عدم الخضوع لمؤسسات الدولة، وما يتخللها من معارك مع الجنود المكلفين بالحفاظ على النظام العام، هو أحد التحديات الكبرى التي سوف تواجهها دولة إسرائيل.

وهل أبلغ دلالة على ذلك ـ وما أكثر الدلائل؟ ـ من مشهد شابين لهما من العمر عشرون عاماً، شبّا على تعاليم التوراة والتلمود، وانتسبا إلى مدرسة دينية (Yeshiva) في القدس، ومضيا إلى قبر رابين، واقتربا من مئات الشموع التي تحيط به، ومن تلال الأزهار التي تعلوه، وأخذا يبصقان على ذلك القبر، بل حاول أحدهما أن يبول فوقه؟

وما هو جدير بالذكر أن هذا العنف الديني الذي تجلى في مقتل رابين أصاب زعيماً يهودياً من بناة إسرائيل الأوائل، لا يمكن وصفه بأنه صاحب دعوة سلمية إنسانية. فلقد كان على العكس من ذلك محارباً شديد البأس، قاد حرب عام ١٩٦٧ بكل ما فيها من بشاعة وقسوة، وهدد بكسر عظام

الانتفاضة الفلسطينية، وكانت جذوره عميقة الارتباط بالصهيونية على نحو ما نشأت، كما كان يحرص أشد الحرص على المحافظة على هوية اسرائيل اليهودية.

والحق أن امتطاء العنف مَرْكباً من قبل الجماعات الدينية المتطرفة، قديم العهد في إسرائيل. غير أن القوم لم يكونوا يأبهون له كثيراً ما دام يجري على الطرف الآخر من البلاد، نعني الضفة الغربية، وما دام موجهاً ضد العرب. وهل أفصح دلالة على هذا الحقد الدفين الذي بدأ يعشش في نفوس المتطرفين الدينيين منذراً بتدمير إسرائيل، من إقدام باروخ غولدشتاين (Baruch Goldstein) على قتل تسعة وعشرين عربياً كانوا يصلون في جامع ابراهيم الخليل؟

بعد هذا كله، ما نظننا أننا في حاجة إلى تقديم شواهد أخرى على تمزق المجتمع الاسرائيلي وتشتّته شيعاً ومذاهب وطوائف ومللاً ونحلاً. والأمر قد تجاوز، كما رأينا، مجرد انقسام اسرائيل إلى كيانين يقتتلان، كيان الاسرائيليين وكيان اليهود. فكل من هذين الكيانين يضم ألواناً وأنماطاً من الانقسامات. ويبقى السؤال الكبير: ما شأن السلام في هذا كله وما دوره؟ وهذا ما سنحاول الإجابة عنه في ما يأتي.

ثالثاً: إسرائيل والسلام

لا شك أن طرح موضوع السلام مع العرب قد زاد في عمق الخلافات والتناقضات القديمة والحديثة داخل إسرائيل.

وهذه الخلافات والتناقضات تؤدي اليوم ـ كما كان شأنها دوماً قبل ولادة الصهيونية وبعدها وقبل ولادة دولة إسرائيل وبعدها ـ إلى مواقف سياسية مبهمة عن قصد، وعن غير قصد، ومتعددة الاتجاهات والمعاني، الأمر الذي يزيد من الفرقة والشقاق والتمزق داخل المجتمع الاسرائيلي. ومن هنا كان من العسير تلخيص مواقف الاسرائيليين من قضية السلام.

على أننا نستطيع في الجملة أن نكشف عن بعض المؤشرات الرئيسية التي تكشف عن معالم قضية السلام ومستقبلها:

١ ـ هنالك شعور واسع الانتشار لدى الاسرائيليين بأن إسرائيل سوف تدفع ثمن السلام غالياً. ويرافق هذا الشعور القول بأن المجتمع الاسرائيلي غير قادر ـ بحكم بنيته الممزقة ـ على دفع هذا الثمن، وليس جاهزاً ومستعداً له بعد. ولا يقتصر هذا الثمن على التخلي عن الأراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧، بل يشمل، في نظر الكثير من المحلّلين، ثمناً معنوياً باهظاً، وهو وقوع «تمزق» مرعب داخل إسرائيل بسبب ذلك، بدأت معالمه تظهر منذ الآن، محوره تعرض الهوية الاسرائيلية لمزيد من البحران والضياع، بل يذهب بعضهم، من أمثال الكاتب اليهودي ستيرنيل (Z. Sternell) صاحب كتاب حديث هو أصول الصهيونية نشره باللغة الفرنسية، إلى حد القول بأن ثمن السلام قد يكون «حرباً أهلية صغيرة» على نحو ما صرح بذلك في حديثه على القناة التلفزيونية الفرنسية الأولى، ضمن

برنامج «سبعة على سبعة» مساء العاشر من شباط/فبراير الماضي.

ويخشى بعض أصحاب هذا الفريق أن يؤدي السلام إلى انحلال اليهودية وذوبانها على نحو ما حدث أيام الشتات الماضي.

ويزيد في شكوك هذا الفريق، خوفه من أن يؤدي السلام إلى انتقال العداء بين العرب واليهود إلى داخل إسرائيل، وإلى قيام حركات (يدعونها ارهابية) بأعمال عدوانية، قد تظهر من جديد، وقد تزداد حدة عندما تخيب الآمال التي عقدها بعض العرب والإسرائيليين على السلام. وعند ذلك يصبح أمن اسرائيل، عن طريق العنف والعنف المضاد، معرضاً للخطر في قلبها وداخلها، ويغدو كل مواطن مهدداً في عقر داره، بعد أن كانت أخطار الحروب مع العرب تقتصر، إلى حد بعيد، على الجنود المحاربين، وتقع خارج مساحة إسرائيل.

٢ ـ هنالك فريق آخر، ما يزال قليل العدد، يرى أن الوقت قد حان للخلاص من ويلات الحروب، ولبناء دولة إسرائيلية ديمقراطية حديثة، ولعودة إسرائيل إلى حظيرة سائر الأمم، دولة شأنها شأن سائر الدول الديمقراطية في العالم.

وأصحاب هذا الاتجاه، شأنهم شأن أصحاب الاتجاه الأول، فرائق وشيع متعددة، تتباين في ألوانها وفي مدى مسالمتها أو تطرفها. على أنهم يرون إجمالاً أن هذا الاتجاه قمين

بأن ينقذ إسرائيل من براثن التمزق والصراع الداخلي، فضلاً عن إنقاذها من مخاطر العداء المستمر لجيرانها العرب.

٣ ـ يلخص هذا الموقف الثنائي الحاخام «إسرائيل هاريل» (Israel Harel) رئيس «مجلس المستوطنات اليهودية» في الضفة الغربية، وهو أحد الحاخامات القلائل الذين أدانوا قتل رابين، ويعد من المعتدلين. ويعبّر عن وجهة النظر هذه على النحو الآتي:

«إن ثمة، وطنيْن آخذان بالتكون في إسرائيل: وطن الاسرائيليين، ووطن اليهود. أما الإسرائيليون فهم «أغيار» (Goyim) يتكلمون العبرية، لا أكثر ولا أقل. ولقد أنهكتهم الحروب وسئموا منها، ونسوا الصهيونية، ولم يعرفوا اليهودية يوماً ما. وقد جاء رابين ليقول لهم فوق هذا كله، أن لا خوف على أمن إسرائيل، وأن في وسعهم أن يطمئنوا بعد اليوم إلى أنهم لن يرحلوا عن هذه البلاد. فماذا يبقى لهم إذاً بعد هذا؟ يبقى لا شيء، يبقى الفراغ المطلق. وهو فراغ لن تستطيع العلمانية أو الديمقراطية أن تسدّه، فكلتاهما لا تعتبران من القيم البنيوية الأساسية للشعب اليهودي. وبمقدار ما كنا نقترب من تنفيذ اتفاقات «أوسلو» كان يبدو واضحاً للفريق الأول، فريق المنتمين إلى «وطن الاسرائيليين»، أن الأرض قد غدت عقبة في وجه التطبيع، بينما كان يبدو للفريق الثاني، فريق المنتمين إلى «وطن اليهود»، أن التطبيع خطر على الهوية الاسرائيلية».

٤ ـ إذا نحن تركنا جانباً هذه القسمة الثنائية العريضة، أمكننا أن نجد، على شكل مضمر أو صريح، اتجاهاً ثالثاً يرى أن السلام سوف يوفر لإسرائيل الغلبة الاقتصادية، وأن الازدهار الاقتصادي الذي قد ينجم عن هذه الغلبة، من شأنه أن يخفف من التناقضات داخل المجتمع الاسرائيلي، وأن يذيب تلك التناقضات في حمّيا الكسب والرخاء.

وثمة اتجاه يناقض هذا الاتجاه، وقوامه أن الازدهار الاقتصادي، إن توافر، سيف ذو حدين، وأنه قد يؤدي بالتالي إلى تزايد الصراع بشتى أشكاله، انطلاقاً من الصراع على الثروة، وأن عبادة المال مصحوبةً بفقدان العدالة، تقود إلى بحران أخلاقي وايديولوجي من طراز جديد، وأن إسرائيل ستكون عند ذلك أشبه ما تكون بـ «فاوست» الذي باع نفسه للشيطان من أجل الثروة والجاه، والذي ربح كل شيء وفقد نفسه.

ويؤكد أصحاب هذا الاتجاه أن عبادة المال لم تكن في يوم من الأيام في تاريخ الشعوب سبيلاً لتماسك الأمم وتلاحم عقيدتها. ولطالما عانى اليهود أنفسهم أيام الشتات من إمحاء هويتهم وتماسكهم وعداء «الأغيار» لهم، بسبب عبوديتهم للمال، وسعيهم المشروع وغير المشروع لاقتناص الثروة من أي سبيل.

٥ ـ إننا نرى أن السلام الحقيقي والمطمئن والدائم، لا يمكن أن يتحقق من دون التصدي بوضوح وجرأة لكل ما أشرنا إليه من عقد وتناقضات داخل اليهودية والصهيونية ودولة

إسرائيل. فالسلم لا معنى له ولا بقاء - أياً كانت الظروف الاقتصادية والسياسية - إذا لم تجهد إسرائيل من أجل التخلي عن ادعاءات التفوق العنصرية، وعن مزاعم الحقوق الدينية لليهود في فلسطين، وعن المنازع التوسعية، وعن الأغراض الصهيونية المنادية بالهيمنة اليهودية الاسرائيلية على المنطقة بكاملها هيمنة اقتصادية وثقافية، فضلاً عن الهيمنة العسكرية والسياسية.

وعندما نقول إن السلم الحقيقي يستلزم مثل هذا التخلي الجريء عن «أوهام» سابقة، فإننا لا نشير بذلك إلى مستلزمات السلام الأساسية في نظر العرب وحدهم، بل نشير بوجه خاص إلى الوسيلة التي تؤدي إلى سلام حقيقي وأمن حقيقي في إسرائيل نفسها. فالسلام القابل للبقاء والنمو والعطاء، هو السلام الذي تصنعه النفوس، وليس السلام الذي تصوغه أحلام الثروة، أو الذي تصنعه القوة، أو يمليه الضغط الدولي، أو يصوغه الساسة خلافاً لإرادة الشعوب. ومثل هذا السلام الباقي المثمر يشترط أولاً وقبل كل شيء أن يشعر العرب والاسرائيليون على حد سواء بأن دولة إسرائيل قد عزمت أمرها فعلاً على أن تكون دولة كدول المنطقة الأخرى، وأن تتجه صوب الحداثة وتتخلى عن رواسب القرون المتخلفة، وأن تمد عينيها إلى مشارف القرن القادم، لتبني مجتمعاً مسالماً ديمقراطياً محباً لغيره من الشعوب متعاوناً معها دون ما صلف أو هيمنة أو ادعاء للتفوق. ويزيد من أهمية هذا الشعور لدى العرب، أن حضارتهم العربية كانت دوماً الرائدة في مجال التعاون بين الأمم، وأن قوميتهم منذ ظهورها في العصور الحديثة كانت

قومية إنسانية ترفض الاستعلاء والتفوق، وتنكر الغلبة والعدوان.

وعند ذلك فقط تستطيع إسرائيل أن تتخلص من الصراعات الداخلية التي تمزقها، والتي ترجع إلى محاولة الجمع بين أضداد لا تجتمع وإلى تزييف الحقائق وطمسها. ومرجع هذه الأضداد، كما قلنا ونقول، إصرار إسرائيل على البقاء في مستنقع المنطلقات التي رسمتها الصهيونية، وفي خضم الأمواج المتلاطمة التي ولدتها التأويلات التي لا تنتهي، والتي صاحبت مسيرة اليهودية، ورفضها بالتالي الدخول في منطق العصر الحديث.

ولا يعنينا أن يكون مثل هذا الموقف الاسرائيلي الذي ندعو إليه ممكناً أو غير ممكن. فليس هذا شأننا، وليست هذه المشكلة مشكلتنا. أما شأننا نحن فهو أننا واثقون، انطلاقاً من تجارب الشعوب على مر التاريخ، ومن واقع المشاعر القائمة في الوطن العربي، ومن واقع التناقضات التي تهز كيان إسرائيل، أن أي سلام دون ما نقول، سلام وهمي وموقوت، بل إننا واثقون بأن إسرائيل مخيَّرة - حتى في حال قبول العرب بالسلام جدلاً راضخين مستسلمين - بين أن يتم السلام الذي تبنيه مع العرب من خلال الزيف والمراوغة واجتناب المشكلات الجذرية القائمة في المجتمع الاسرائيلي، الأمر الذي لا بد من أن يثير عواصف جديدة من الانقسامات والتمزق في داخلها أثناء مفاوضات السلام وبعد السلام قد تؤدي بها إلى حرب أهلية، وبين أن تعمل بجرأة على الدعوة إلى سلام من نوع جديد، في

إطار دولة حديثة غير عادية ولا مستعدية، تعيد الحق إلى أصحابه، وتفضح التعبئة العدوانية التي ولدتها الصهيونية رغبة ورهبة لدى اليهود، ولا تترك مجالاً في دولة إسرائيل الجديدة للتوالد السرطاني للنزعات الدينية والصهيونية المعادية حين تنكرها أصلاً وجوهراً.

أما أن تنشد إسرائيل السلام مع الإبقاء على مقومات العداء، فهذا «خُلْف» كما يقول المناطقة، ومُصادرة على المطلوب الأول. وعلى إسرائيل أن تدرك بوجه خاص أنها لا تستطيع أن تضمن إلى الأبد أن يخف العالم دوماً لإنقاذها، وأن يهرول إلى خدمتها وصونها ومواساتها كلما أصابتها هزة أو مسّها سوء. ولا بد من أن يضيق هذا العالم ذرعاً في يوم من الأيام بدولة «ولّدها» قسراً وخداعاً، ولم يحسن إلى اليهودية حين استسلم لأوهام زعمائها الصهاينة ومطامعهم فأعيته الحيلة بعد ذلك، ونتيجة لذلك، من أجل المحافظة على وجودها المصطنع.

بل لا بد أن يتساءل هذا العالم نفسه، وتتساءل طائفة كبيرة من أبناء إسرائيل في يوم من الأيام: حتى متى يستمر العالم المتقدم في اضطهاد أصحاب الحق في فلسطين وأبناء الأمة العربية وإذلالهم؟ وما هو عدد الضحايا من العرب والإسرائيليين وسواهم الذين سوف يقدمون على مذبح الخطأ والضلال والادعاء الكاذب، إذا قام سلام خادع ناقص على حساب العرب ومستقبلهم، يكرر مآسي الدعوة الصهيونية على

نحو أوسع وأشمل؟ وهل من اللازب أن تذهب الضحايا تلو الضحايا وأن يتزايد اضطراب الأمن في المنطقة يوماً بعد يوم، حتى تستفيق إسرائيل ويستفيق العالم؟

ومن المؤسف أن ما نشهده حتى الآن هو أن حكومة إسرائيل ما تزال تعمل للسلام من منطلقات العدوان، أي من خلال منطلقاتها الصهيونية التوسعية، ومن خلال منطق المخادعة من أجل الهيمنة على المنطقة العربية بوسائل جديدة، على رأسها الهيمنة الاقتصادية والثقافية. والسلام عندها حتى الآن، يعني هجمة صهيونية من طراز جديد وباسم جديد، هو «النظام الشرق ـ أوسطي». ومثل هذا الموقف لا يطرح فقط تساؤلات عن إمكان قيام السلام من خلال هذا المنطق، وعن إمكان استمراره بعد قيامه، وعما يمكن أن تكون ردود الفعل العربية عليه في المستقبل، وإنما يطرح كما قلنا ونقول تساؤلات حول مدى قدرة المجتمع الاسرائيلي المتنافر على تحمل نتائج مثل هذا السلام، إذا لم تقم جهود حثيثة من أجل إحلال منطق السلام في عقول الاسرائيليين، ومن أجل إدراك مستلزماته الجديدة، ولا سيما في ما يتصل بالتخلي عن مواقفهم الايديولوجية التي ورثوها عبر القرون، والتي أذكتها الصهيونية وزادت في أوارها.

وقد يبدو من السذاجة أن ننتظر من قادة إسرائيل الحاليين أن ينزعوا إلى مثل هذا المنزع، فهم بحكم ماضيهم وتكوينهم ومطامعهم السياسية الشخصية عاجزون عن ذلك. وأياً كانت

الحال فإنقاذ إسرائيل من التمزق والضياع عن طريق سلام سليم الجوهر والمخبر، شأن لا يعنينا بل يعنيها. وما يعنينا نحن هو أن من المؤكد أن أي سلام في إطار الإبقاء على المطامع الصهيونية ومنطلقاتها سوف يؤدي إلى تمزق إسرائيل أكثر فأكثر، وإلى تجدد العداء بينها وبين العرب، وإلى العودة إلى نقطة الصفر. وليس من مصلحة العرب على أية حال أن يقدموا على «عملية انتحار» مشتركة مع إسرائيل، وأن يُحَمّلوا معها على «مركبها المهتز» الذي يشرف على الغرق، وأن يتحملوا في ما بعد المخاطر التي سوف يفرزها وجود إسرائيلي مريض، لم يجد شفاء لأمراضه، والتي يولدها كيان إسرائيلي غير معافى وغير مستقر الأهداف، ولن تنقذ المنطقة، حين تحين الساعة، القوة العسكرية الاسرائيلية، أو «طوباوية» المساعي الأمريكية والدولية التي لا تريد أن ترى الواقع الحقيقي وتستخرج مدلولاته، والتي تؤثر الاستمرار في سياسة «النعامة» ما دامت تخدم ـ ولو مؤقتاً ـ أغراضها ومطامع ساساتها وتسابقهم على الزعامة.

لقد قالها فيلسوف إسرائيل الصهيوني المتدين ليبوفيتش حين دعا إسرائيل إلى أن تغادر حالاً، ومن جانب واحد، الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧، إنقاذاً لها من الانهيار التدريجي والتفكك الخلقي والمعنوي وحين نعت إسرائيل، بعد محاصرة بيروت عام ١٩٨٢ بأنها «دولة يهودية نازية»[٢٥]. بل قال ما هو أبعد من هذا وأعمق: «إذا نحن تابعنا مسيرتنا على هذه الطريق فإنها سوف تقودنا لا محالة إلى سقوط دولة

إسرائيل، وذلك خلال سنوات معدودة، دون أن يحتاج الأمر إلى أجيال»[٢٦].

٦ ـ وبعد، لعل الحق أن نقول أن ما بني على الفساد فاسد، وإن ما قام على ضلال فمصيره إلى ضلال أكبر. ولا يُصلح الضلالَ تزويقُه والإمعان فيه، بل يصلحه الإقرار به. ولكن هل فات الأوان أمام الصهيونية وإسرائيل للإقرار بخطأ منطلقاتهما، وهل في وسعهما أن يفعلا ذلك؟ سؤال لا نملك الجواب عنه، ونحيله إلى أصحابه.

ويعنينا، نحن العرب، أن ندرك حقيقة نستخلصها من كل ما قلناه وهي أننا نرفع من شأن إسرائيل وقدرتها، وقلما ندرك عجزها والآفات القتالة التي تفتك في بنيانها المعنوي الداخلي. وفي مقابل ذلك، كثيراً ما نحط من قدرة العرب ومن الطاقات الكبيرة المدفونة التي يملكونها، وعلى رأسها الطاقات المعنوية. وهذا التجاهل لعجز إسرائيل، المصحوب بالازدراء بقدرة العرب، من شأنه أن يجرنا إلى محاولة «انتحار» مشتركة.

أما إذا نظرنا إلى المستقبل العربي من خلال حقيقة إسرائيل ووهنها المعنوي المتزايد وافرازاته المستقبلية، ومن خلال حقيقة الأمة العربية وطاقاتها الكبيرة، معنوية كانت أو مادية، واستخرجنا من ذلك كله النتائج التي تلزم عنه، وطرقنا السلام بالتالي من أبوابه الحقيقية، غير واهمين ولا مضللين، فإن مستقبلنا سوف يبدو لنا مشرقاً أكثر مما نظن، ولو تعثر السير إليه حتى حين.

الهوامش

(١) أمنون روبنشتاين، مراجعة الحلم الصهيوني، ترجمة محمد نجاة العظم (دمشق: مطبعة الصباح، ١٩٩٤)، ص ٣٠٨.

(٢) إسرائيل شاحاك، التاريخ اليهودي: الديانة اليهودية، وطأة ثلاثة آلاف سنة، ترجمة صالح علي سوداح (بيروت: بيسان للنشر والتوزيع، ١٩٩٥)، ص ٥٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٩.

(٥) المصدر نفسه، ص ٦١.

(٦) انظر: Alain Dieckhoff, *L'Invention d'une nation: Israël et la modernité politique* (Paris: Gallimard, 1993), p. 175.

(٧) انظر: Hans Küng, *Le Judaïsme* (Paris: Seuil, 1995), p. 683.

(٨) المصدر نفسه، ص ٧٣٣.

(٩) انظر: Dieckhoff, Ibid., p. 175.

(١٠) رشاد عبد الله الشامي، القوى الدينية في إسرائيل: بين تكفير الدولة ولعبة السياسة، سلسلة عالم المعرفة؛ ١٨٦ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٤)، ص ٣٤.

(١١) Dieckhoff, Ibid., p. 280.

(١٢) الشامي، المصدر نفسه، ص ١١٢. ومنه نستقي معظم ما سيرد حول الأحزاب اليهودية الدينية.

(١٣) من أجل مزيد من التفصيل، انظر: المصدر نفسه.

(١٤) انظر بوجه خاص: روبنشتاين، مراجعة الحلم الصهيوني، ولا سيما الفصل ٦، ص ١٨٧ ـ ٢١٦ والفصل ٧، ص ٢١٧ـ ٢٥٣.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٢٢٣ ـ ٢٥٣.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٢٤٥.

(١٧) نقلاً عن: المصدر نفسه، ص ٢٣٧.

(١٨) انظر: Küng, *Le Judaïsme*, p. 527.

(١٩) نقلاً عن: المصدر نفسه، ص ٧٣٠.

(٢٠) نقلاً عن: شاحاك، التاريخ اليهودي: الديانة اليهودية، وطأة ثلاثة آلاف سنة، ص ١٢١.

(٢١) نقلاً عن: Küng, Ibid., p. 570.

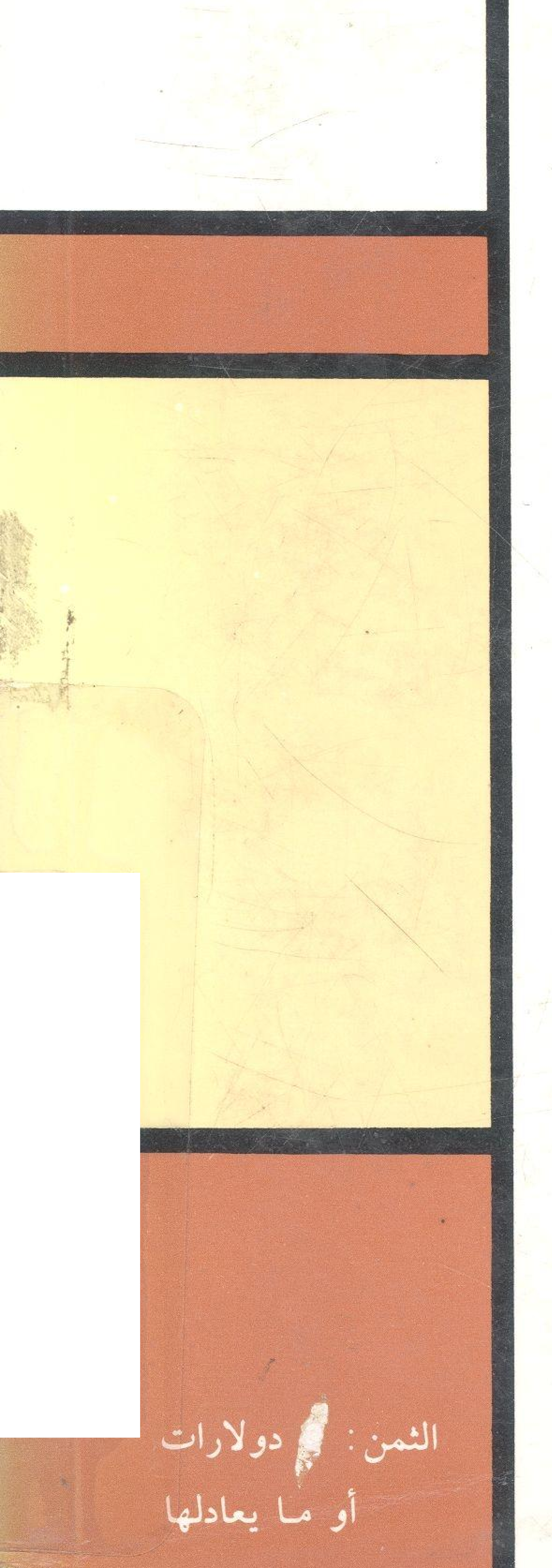
(٢٢) المصدر نفسه، ص ٥٧٠.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٦٩١.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٦٨٣ ـ ٦٨٤.

(٢٥) Yeshayahu Leibowitz, *Peuple, terre, état* (Paris: Plon, 1995).

(٢٦) نقلاً عن: Küng, Ibid., p. 716.



هذا الكتاب

الأطروحة التي ينافح عنها الكتاب هي أن دولة إسرائيل المتفوقة عسكرياً وتقانياً وعلمياً، تشكو وهناً عريقاً ومقيماً في كيانها المعنوي، وأنها ملتقى لصراعات تليدة وجديدة، من كل جنس، تمزق وجودها، وتجعلها دوماً كياناً قابلاً للتفجر من داخله، وأن هذه الصراعات ليست عارضة أو طارئة، بل هي صراعات رافقت اليهودية عبر العصور، وواكبت الصهيونية قبل نشأتها وبعد نشأتها، وصبّت جميعها في دولة إسرائيل بعد ولادتها القسرية واستشرت. ولا شفاء منها بالتالي إلا بالعدول عن منطلقات الصهيونية الملفقة، وأهواء النزعات الدينية المصطرعة والمزيفة، وأوهام الادعاءات الإثنية والعرقية المصطنعة.

ويبحث الكاتب في جذور هذه الصراعات جميعها، مشيراً إلى أبرز معالمها، مبيناً انعكاساتها على الكيان الاسرائيلي الحالي الممزق، وعلى ما يتوالد فيه من أحزاب وحركات دينية وسياسية محتربة، متريثاً عند ما يخلفه ذلك كله من تساؤلات حول مستقبل الوجود الصهيوني، وما يطرحه من مشكلات جديدة على مسألة السلام.

والكتاب بقلم مفكر عربي رائد، له في ميدان الفكر القومي، وفي ميدان التربية، عطاء واسع وفذّ، ومنشورات جمّة.

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون

ص.ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣ ـ بيروت ـ لبنان

تلفون: ٨٦٩١٦٤ ـ ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧

برقياً: «مرعربي» ـ بيروت

فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)